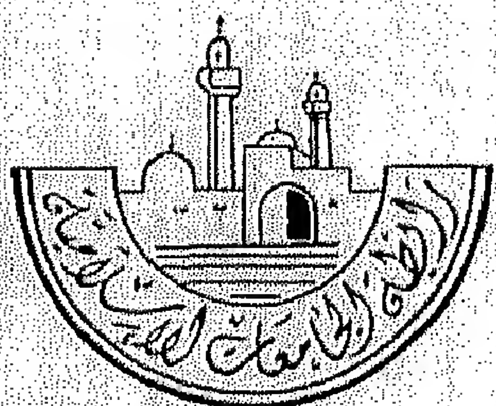
دكتور محمد ياسين مظهر صديقي

الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي



ترجمة
دكتور سمير عبد الحميد إبراهيم



الهجمات المغرضة

على التاريخ الإسلامي

كتبه بالأردية

دكتور محمد ياسين مظهر صديقي
قسم الدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية
عليگره

الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي

ترجمة

دكتور سمير عبد الحميد إبراهيم



الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ بدأ الاستدمار الغربى (ولا أقول الاستعمار) يعرف حقيقة القوة الإسلامية الكامنة ، ويعرف أن الحقيقة الإسلامية لا تقهر بالمواجهة العسكرية أو السياسية أو الفكرية الواضحة ...

منذ هذا الوقت والحملات المغرضة الخفية والظاهرة ، والصريحة والماكرة تترى على كل ما يتصل بالإسلام ...

- إنهم يهاجمون - بالفكر الخبيث لا بالحجة - الإسلام عقيدة وشريعة .
- وإنهم يهاجمون - بالفكر الماكر - الإسلام حضارةً وتاريخًا .
- وإنهم ليعملون على تشويه كل ما قدمناه للبشرية ، مع أنهم - باعترافهم - عالة علينا ، قد أخذوا مِنَّا الأخلاق والقيم والعلوم والفنون ...فلم يعرفوا الفروسية ، ولا الحمامات ، ولا احترام المرأة والثقة بأنها إنسان كالرجل تماما ، ولا الانضباط ، ولا المدارس والجامعات ... لم يعرفوا كل ذلك وغيره إلا من خلالنا ، وعندما جلسوا تحت أقدامنا يتعلمون فى قرطبة وغرناطة وبجاية والقيروان وصقلية وبغداد ودمشق والقاهرة ... حتى البابا سلفستر الثانى كانت مفخرته الكبرى أنه تتلمذ على المسلمين فى قرطبة ، وتعلم لغتهم ودرس علومهم ...

ومع ذلك - وبحقد وغدر لا مثيل لهما فى التاريخ - ذهبوا يلتهمون كل ما لدينا ، ويطورون عقولهم وحياتهم ، وفى الوقت نفسه ينكرون أى فضل

لنا ... اللهم إلا عدد قليل منهم ؟ برىء – إلى حد ما – من هذه الآفة التى لا تليق بالحضارة ولا الإنسانية !!

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ الذى يمثل موقفًا شخصيا يمكن القول فيه بأنه دفاع عن الذات أمام الإسلام – حتى ولو بالافتراء على الإسلام – بل تعدى الأمر ذلك إلى محاولة تشويه الإسلام وحضارته وتاريخه ، ليس أمام الأوربيين هذه المرة ، بل أمام المسلمين أنفسهم ... وهذه أخبث من الأولى ؛ لأنها محاولة تعكير المنابع الإسلامية ، حتى يضل أصحابها عن طريقها ، وتتهاوى علاقتهم بها .

وقد ظهرت طبقة من المستشرقين لا عمل لها – على الأقل خلال القرون الثلاثة الأولى لنشأة الظاهرة الاستشراقية – إلا تشويه الحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، والتركيز على الشخصيات الملحدة والمنافقة والقلقة والشعوبية فى هذا التاريخ ... وفى المقابل محاولة تضخيم خلافات المسلمين مع بعضهم ، حتى لكأنهم كانوا ينتظرون منهم أن يكونوا ملائكة ، أو قوما بلا وجهات نظر وآراء .

وقد أخفوا الجوانب التى تغطى معظم المساحة ، وهى مساحة الإشراق والعظمة فى تاريخنا الإسلامى أفرادًا وحكومات وطبقات منسجمة متوازنة متكاملة .

ولم يتورعوا عن محاولة النيل من أعظم شخصية عرفها التاريخ (كما يقول منصفوهم وعلى رأسهم برناردشو ومايكل هارت ولوبون وغيرهم) وهى شخصية الرسول ﷺ ، ثم ذهبوا يلتمسون الثغرات – من وجهة نظرهم المريضة – فى شخصيات الصحابة والتابعين والدول الإسلامية المتلاحقة .

وقد وضح أن الإنفاق السخىّ الذى تبذله وزارات المستعمرات وإدارات

الاستخبار على كثير من المستشرقين والباحثين ، وعلى بعص الجامعات ، إنما كان أمرا مخططًا له ، وداخلا فى إطار خطة السيطرة على الشعوب الإسلامية ، وفصمها عن عناصر قوتها وركائز حضارتها ، ومحاولة تمييع رؤيتها لأساسيات وجودها .

وهذا الكتاب الذى تقدمه رابطة الجامعات الإسلامية اليوم للكاتب الهندى المسلم الدكتور محمد ياسين مظهرى (الأستاذ بجامعة عليگرة الإسلامية) ليس إلا حلقة فى سلسلة متابعته للحملات المغرضة على تاريخنا الإسلامى ...

ونحن نتمنى أن يمدّ الكتّاب المسلمون – ومنهم المؤلف – الطرف إلى محاولات طوائف أخرى غير المستشرقين تشويه تاريخنا الإسلامى ، وعلى رأس هؤلاء المشوهين لتاريخنا المتجرئين عليه المفسرين له تفسيرا خاصا طائفة القرامطة التى انبعثت لها رءوس فتنة فى عصرنا من جديد ، بعد أن كانت الفتنة نائمة (ولعن الله من أيقظها) . وأبت هذه الرءوس إلا أن توقظها عن طريق الطعن فى الصحابة والهجوم على تاريخ المسلمين ، وادعاء العصمة لغير رسول الله ﷺ وإثارة الفتن فى أمة محمد ﷺ ومن هؤلاء الشيوعيون الذين يؤولون الوقائع وفق تفسيرهم اليسارى الطبقى المادى . ومع كل ذلك نقول مطمئنين : إن هذه الحملات المغرضة ليست بنت اليوم .. بل إنها موجودة منذ ظهر الإسلام .. فالصراع بين الإسلام والباطل سنة كونية .. وإن التجربة الحضارية الإسلامية فى التاريخ لهى أقوى من أن تشوه روعتها بعض الأتربة العابرة ، أو بعض الذين يحاولون حجب الشمس بغربالهم الهزيل .. فالحق هو الأقوى دائما .. ومن خلف كل الضبابيّات استطاع الإسلام دومًا أن ينفذ بأشعته ، وأن يهدى الذين لديهم بصائر .. أما العميان .. الرافضون – مبدئيا – للحقيقة .. فلن ينتفعوا بهدى الإسلام ﴿ ولا يزالون مُخْتَلفين إلَّا من رَحِم ربُّك ولذلك خلقهم ﴾ ... ومع هذا الخلاف

المستمر بين كتيبة الحق ، وكتائب الباطل .. فالعاقبة – فى نهاية الصراع – للمتقين ، ﴿ وإنَّ جُنْدَنا لهُمُ الغالبون ﴾ .. ﴿ ولقد كتبنا فى الزَّبور من بَعْدِ الذِّكْرِ أن الأرض يَرِثُها عِبادِىَ الصالحون ﴾ .

صدق الله العظيم

رئيس رابطة الجامعات الإسلامية

د / عبد الله بن عبد المحسن التركى

تمهيد

المؤرخون القدامى : القرن الأول والثانى الهجرى

ظل التاريخ الإسلامى – دون غيره – هدفا لهجمات مغرضة من بين تواريخ دول العالم ، ولا يزال حتى الآن هدفا لهذه الهجمات المتنوعة التى أخذت أشكالا مختلفة وفى مقدمتها : العصبيات القبلية ، ومصالح الشعوب والجماعات المختلفة ومسلك كل منها ، والاختلافات السياسية .

وقد مثلت هذه الأمور بداية تلك الهجمات ؛ ذلك لأن مصادر التاريخ الإسلامى التى كتبت فى الأمصار العراقية ، وبخاصة فى الكوفة والبصرة وبغداد ، لم تنج من تعصب المؤلفين ورواة الأخبار الذين لم يبتعد أكثرهم عن العصبية بكافة أنواعها .

ومع أن هناك مؤلفين ورواة أوائل كتبوا فى السيرة ، والمغازى وتوافرت الثقة فيهم من أمثال : أبان بن عثمان (المتوفى ١٠١ – ١٠٥هـ/ ٧١٩ –٧٢٤م) ، وعروة بن الزبير (المتوفى ٩٤هـ/ ٧١٢م) ، وعبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم (المتوفى ١٣٠هـ/ ٧٤٧م) ، وعاصم بن عمر ابن قتادة (المتوفى سنة ١١٩هـ/ ٧٣٦م) ، وابن شهاب الزهرى (المتوفى سنة ١٢٤هـ/ ٧٤١م) ، وموسى بن عقبة (المتوفى ١٤١هـ/ ٧٥٩م) ، ومعمر بن راشد (المتوفى ١٥٤هـ/ ٧٦٢م) ، وغيرهم من الثقات الذين يعتد بمؤلفاتهم ، لكن هناك أيضا من هم من أمثال شرحبيل بن سعد (المتوفى ١٣٣هـ/ ٧٤٠م) ، ووهب بن منبه (المتوفى ١١٠هـ/ ٧٢٨م) ، ومحمد بن

إسحاق (المتوفى ١٥٠هـ/ ٧٦٨م) وأبى معشر السندى (المتوفى ١٧٠هـ/ ٧٨٨م) ، ومحمد بن عمر الواقدى (المتوفى ٢٠٧هـ/ ٨٢٣م) ، وهشام بن محمد بن سائب الكلبى (المتوفى ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م) ، ومحمد بن سعد (المتوفى ٢٣٠هـ ، ٨٤٤م) ، وغيرهم ممن يوجه لهم النقد نظرا لما اتصفت به كتاباتهم من إفراط وتفريط . ومع أنه قد ظهر من بينهم من لم يثبت ضده أى نقد موجه من أهل الجرح والتعديل ، فى ضوء الأبحاث الجديدة ، إلا أنه من الصحيح أيضا أنه صدرت عنهم روايات ضعيفة بل موضوعة .

ويعتبر أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدى (المتوفى ١٥٧هـ/ ٧٧٤م) من رواة ومؤلفى الحوليات ، وهو بالإضافة إلى تدوينه وتحقيقه بل وتعصبه لتاريخ قبيلته « أزد » كان أيضا معبرا عن وجهات نظر الشيعة كما كان مخالفًا للروايات الشامية . وها هو سيف بن عمر التميمى (المتوفى ١٨٠هـ/ ٧٩٦م) يكتب عن أعمال ومآثر قبيلته تميم بمبالغة شديدة ، ويخلط كتاباته بعناصر رومانية ، بينما يتهم عوائد بن حكم الكلبى (المتوفى ١٤٧هـ/ ٧٦٤م) بتلفيق روايات مكذوبة لصالح الأمويين والشاميين .

وسواء كان الاتهام الموجه إليه صحيحا أم غير صحيح ، إلا أن هناك بالضرورة ما يدل على ميوله الأموية فى رواياته . ويفهم من خلال الدراسة التحليلية أن جميع رواة ومؤلفى الحوليات تقريبا يدخل فى عملهم عُنصر العصبية القبلية بصورة واضحة تمامًا ، كما أنهم من الناحية السياسية كانوا يعبرون عن وجهات نظر قبائلهم . ويتحدثون بلسان هذه القبائل .

ومع أن جميع المؤرخين وكتاب السير يتفقون بصورة عامة على أن روايات على بن محمد المدائنى (المتوفى ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م) كانت معتبرة وموثوقا بها ، وأنها قائمة على منهج تاريخى صحيح وتتفق تماما مع العقل والقياس ، إلا أن بعض رواياته ضعيفة ولا تخلو من ميول مذهبية ، وفكرية . وهذه حقيقة

تاريخية سلم بها المؤرخون والمحدثون بصفة عامة ، وهى أن جميع الروايات التاريخية التى جمعت فى الأمصار العراقية : الكوفة والبصرة خاضعة للعصبية . [وجميع رواة الحوليات ينتمون فى معظمهم لهاتين المدينتين] ، وكذلك الشأن فى الكتب التى كتبت عن موضوعات التاريخ الإسلامى والسيرة النبوية فيما بعد – وبخاصة بعد تعمير بغداد وتطويرها كعاصمة للخلافة العباسية – فهذه الكتب كانت تضم أحكاما وأفكارا ضد الأمويين ، وكانت هناك أسباب عدة لهذا الأمر :

أولها : أن عصر خلفاء بنى أمية بدأ فورا بعد عصر الخلافة الرشيدة ، مما جعل المقارنة بين حكام العصرين أمرا طبيعيا ، وهى مقارنة كان وضع الأمويين فيها ضعيفا دائما ... بالنسبة للخلفاء الراشدين قمة الحضارة الإسلامية بعد الرسول .

وثانيها : أن نتيجة بعض أعمال خلفاء بنى أمية أدت إلى بدء حركة تمثلت فى الطعن فيهم ، وهو طعن لم ينج منه الصحابة الكرام الذين ينتمون إلى البيت الأموى !!

وثالثها : الحسد أو التنافس السياسى الذى ظل قائما بين العراق والشام منذ البداية ؛ إذْ كانت الشام مركزا للخلافة الأموية بينما كان العراق المعارض السياسى والمعارض « المذهبى » للشام .

ورابعها : أن الخلافة العباسية قامت على أساس معارضة الأمويين ، وبالتالى أصبحت الروايات والكتب التاريخية فى العالم يسودها طابع العداء للأمويين .

المؤرخون العالميون :

يُعَدُّ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) العصر الذهبى لتدوين التاريخ الإسلامى حين ظهرت على الملأ المآثر العلمية للمؤرخين والمؤلفين الكبار .

فها هو كتاب « السيرة النبوية » الذى كتبه عبد الملك بن هشام (المتوفى ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) والموسوعة التى تعد طبقا لأبحاث زماننا أكمل وأول مؤلف عن السيرة وصلنا حتى اليوم .

ومع أن هناك ثقة يدعمها الاطمئنان بما لدى ابن هشام من قدرة منهجية ، إلا أن العديد من الروايات عنده - رغم احتياطه الكامل - لا يمكن أن توضع على محك عِلْمَى الرواية والدراية ، هذا بالإضافة إلى أننا نلاحظ ميله إلى القبائل الجنوبية وبعض الأفراد ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تأثير عامل العصبية القبلية لديه .

أما إمام علم التاريخ فى هذا القرن فهو محمد بن جرير الطبرى (المتوفى ٣١٠هـ/ ٩٢٣) ورغم الإجماع على إمامته التاريخية إلا أن من المعروف أنه جمع فى كتابه العظيم « تاريخ الرسل والملوك » الروايات المسندة إسنادًا صحيحا وغيرها من الروايات غير الصحيحة ، وقد جمع الروايات الصحيحة والروايات الضعيفة والموضوعة فى سياق واحد !! ولم يدرسها أو يحللها أو يكشف ضعفها ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح من الصعب على القارئ العادى أن يميز الصحيح من الخطأ فيها .

وقد شاع قول النقاد والمحدثين فيه : « بأنه جامع للروايات أكثر منه مؤرخا » وهو رأى صحيح إلى حد ما ، وربما أدرك هو نفسه ذلك وشعر به !!!

أما كتب أحمد بن يحيى البلاذرى (المتوفى ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) فتعد من أهم المصادر فيما يتعلق بتدوين تاريخ القرون الأولى ، لأنه وضع الروايات العراقية جنبا إلى جنب مع الروايات الشامية ، لكنه لا يعرض التاريخ بصورة مترابطة ومسلسلة ، وهو فى بعض الأوقات يقبل الروايات الضعيفة .

أما أحمد بن أبى يعقوب اليعقوبى (المتوفى سنه ٢٩٢هـ/ ٩٠٣م) فهو مؤرخ شيعى بصورة أساسية ، ورغم ذلك تقلّ عنده عناصر المبالغة والأسلوب الخرافى الأسطورى ، إذا ما قورن بالآخرين . وعلى العكس منه أبو حنيفة الدينورى (المتوفى ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) والذى لجأ إلى الأسلوب الأسطورى الخالص ، رغم أن موضوع بحثه كان واسعًا ، ويتضمن أمم العالم المختلفة .

هذا بينما يعدّ مواطنه ابن قتيبة الدينورى (المتوفى ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) مؤرخًا حقيقيا ومعترفًا به بصورة عامة على أنه ثقة ، مع أن تاريخه من ناحية أخرى يفتقد طابع التسلسل التاريخى فى كتاباته !!

وكان معظم مؤلفى القرن الرابع حتى السادس الهجرى (العاشر حتى الثانى عشر الميلادى) يتمتعون بإحساس ناضج بالتاريخ ، إلا أن توجههم الأساسى كان لعصرهم دون غيره من العصور ، واكتفوا بالأخذ عن شيوخهم الكبار السابقين ما يحتاجون إليه من أخبار قرون التاريخ الإسلامى الأولى .

ويعد على بن حسين المسعودى (المتوفى ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) ومعه حمزة الأصفهانى (المتوفى ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م) من أهم المؤرخين ويفهم من تعليقات ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) وتلامذته أن المسعودى لم يكن موفقا تماما رغم كونه مؤرخا يمتاز بالحسّ التاريخى ، فهو لم ينج من السير على طريقة العصبية ، ومن قبول الكتابات المزورة ، والروايات الملفقة .

ولم يكن مؤرخو هذين القرنين والقرون التالية لهما مؤرخين إسلاميين بمعنى الكلمة ، فلم يبرأوا من العصبيات الاجتماعية ، والمحاباة القبلية ، والميول السياسية ، والخلافات الفقهية ، والنزاعات المذهبية . وقد صدر هذا عن بعضهم نتيجة لنقص فى المعرفة إلا أن عددًا كبيرًا منهم قد ترك جروحا وبثورًا وبصمات سيئين عن عمد وعن قصد على صفحات التاريخ الإسلامى ؛ نتيجة

لتدوينه لما يعجبه ومالا يعجبه ونتيجة لعصبيته ، وهكذا قام معارضو الإسلام بالاستفادة من الكتابات الضعيفة لدى هؤلاء الكبار العظام وجعلوها عونًا لهم أثناء هجماتهم الفكرية ومؤامراتهم المغرضة على تاريخنا العظيم .

المستشرقون :

لاشك أن المستشرقين هم أكثر من شوهوا التاريخ الإسلامى . وطبقا لتصريحات العلماء والباحثين فقد بدأ الاستشراق أساسًا لطعن الإسلام وتشويه صورته ، وقد امتلأت قلوب المعارضين للإسلام ، وبخاصة من أهالى البلاد المفتوحة بالعداوة للإسلام ، وهى عداوة امتزجت بالحقد والكراهية ، وبعدها انتقل هذا الشعور المعادى للإسلام من جيل إلى جيل لقرون فى شكل روايات راجت بين الروم والبيزنطيين والآراميين والمسيحيين واليهود . وهى روايات اعتمدت فى معظمها – إن لم تكن كلها – على الشائعات واتسمت بالجهل بالحقائق والعداء الصّارخ للإسلام .

وهكذا طوت هذه الروايات رحلتها عبر الزمان على « مطية » الإشاعات ، كما عبرتها أحيانا على صفحات كتابات ومؤلفات تاريخية ، وعلى كتب الرحلات والأسفار . وقد أشعلت هذه العداوة للإسلام العصبيات القومية والنعرات الحضارية والشعوبية ، إلا أن المسلمين قد نجحوا – مع ذلك – إلى أن يصلوا بالحضارة إلى مدارج عالية وإلى أن يرقوا رقيا سياسيا كبيرًا وتتسع فتوحاتهم وتصل عندها العداوة للإسلام إلى حد إعلان الحروب الصليبية .

وحين فشلت قوة سيوف ومدافع العالم الغربى والنصرانى فى إطفاء نور الإسلام ، بدأ هذا العالم الغربى والنصرانى فى استخدام خداع حركة الاستشراق ، وبدأت هذه الحركة تبدو منظمة ومنسقة فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وبدأ جربر دى أرالياك (Gerber de araliac) وقسطنطين

الأفريقى Castantian African ، وأدلرد باغ (Adelardy Bagh) وروجر بيكن (Roger Bacon) وجون الدمشقى ، بدأوا بحملاتهم المغرضة على التاريخ الإسلامى والسيرة النبوية .

وبعد قرون بدأ كل من ڤولتير (Voltaire) واليكسندر روس (Alexander Ross) وهيلبيرت (Hildebirt) ودانتى (Dante) وغوليوم بوستل (Guillaume Postel) وجوزف اسكاليبه (Joseph Scaliger) فى طبع أبحاث علمية معادية للإسلام .

ومنذ القرن السادس عشر الميلادى بدأت حركة الاستشراق عملها طبقا لخطة عملية محكمة ، وصلت إلى ذروتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين ؛ إذْ قام المستشرقون المشهورون من أمثال وليم بيدويل (William Bedwell) و ب ڤاتيه (P. Vattier) وهاتينجر بتشويه السيرة النبوية تشويها ذريا ، وكانت دوافعهم من وراء كل هذا دوافع دينية بحتة . وإذا ما استثنينا المستشرق هنرى سُتبّه (Henry Stubbe) الذى كان إلى حدٍ ما يتصف بالعدل والإحساس والشعور والضمير ، فإن جميع المؤرخين الغربيين حملوا على قلوبهم علامات تدل على عداوتهم للإسلام ورغم أن كلًّا من سيمون أوكلاى (Simon ockley) وإيدوارد بوكاك Edward Pocake وجورج سيل (George Sale) ، وإيدوارد جيبون (Eduard Gibbon) وڤولتير (Voltaire) قد التزموا بالموضوعية أحيانا إلا أنهم استهدفوا فى معظم الأحيان وضع السم بين صفحات التاريخ الإسلامى .

وخلال القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين ، وصلت حركة الاستشراق إلى قمتها ، وفى هذه الفترة قام عدد من المستشرقين بالبحث عن جوانب التاريخ الإسلامى المختلفة والبحث فى أزمنته المختلفة ، وألقوا الضوء على نواياهم واتجاهاتهم من وراء أبحاثهم تلك .

ومن بين هؤلاء جان جاك سيديلّو ، وديفرجيه (Desvergers) وبيرون

Perron ، وجوزف وايت (Joseph White) و ى . هـ بالمر E. H. Palmer ودى غوييه(De Goeje) ووستنفيلد (Wustenfeld) وبيريزين (Beresine) وسخاو (Sochau) وڤان كريمر (Van Kremer) ووليم ميور (William Muir) وليبون (Lebon) وجولد تزيهر (Goldziher) وولهاوزن (Wellhausen) وغيرهم .

وأيضا قام مستشرقو العصر الحديث بالكتابة عن الإسلام والتاريخ الإسلامى من وجهة نظرهم الاستشراقية الخالصة ، ونذكر من بينهم مونته (Montent) و ، ج ديمومبيونه (G. Demombynes) و ت . أرنولد (T. Arnold) إس لين بول (S. Lan-Poole) ونكلسون (Nicholson) ونولدكه (Noldeke) وهرجرنيه (Hergrenje) وجوزيف هوروتس (Joseph Herotitz) ، وبروكلمان (Broekolman) وبارتهولد (Bartthold) و هـ . ج . ويلز (H. G.Wells) و هـ . جب (H. Gibb) وسميث (W. C. Smith) وجوزف شاخت (Joseph Schacht) وبرنارد لويس (Bernard Leuis) وتور اندريه (Tor Andre) وفرانسسكو جبرائيلى (Francisco Gebraeli) ومونتجمرى وات (Montgemry Watt) .

لقد قامت حركة الاستشراق فى بدايتها بالتركيز على الهجوم على رسول الله ﷺ ، وعلى التاريخ الإسلامى . وكان هذا قائما على الجهل من ناحية ، والعداوة من ناحية أخرى ، جهل بالإسلام وعداوة للإسلام . ثم كانت المرحلة التالية ، فانطبع اتجاه مؤرخى تلك الفترة بعدم العلمية ، وساده الجهل الكامل ، إلا أن هذه الاتجاه بدأ يتجه تدريجيا فى التغير ؛ نظرا للتعرف على المصادر الإسلامية ، ونظرا لرقى الثقافة والحضارة ، وقد بدأ أسلوب الكتابة يسوده الاتزان ، ويتصف بالمعرفة ويرتكز على البحث والتحقيق ، إلا أنه من وراء كل هذا استمرت المؤامرة القديمة والخطة المسمومة البالية .

وفى الفترة الأخيرة بدأ الهجوم على التاريخ الإسلامى متخفيا داخل رداء أسلوب الفكر العلمى القائم على البحث وأسس التحليل والنقد . ومع أن هؤلاء المستشرقين ومن يساندهم قد ادَّعوا أنهم طالعوا التاريخ الإسلامى والعلوم والفنون الإسلامية ، مطالعة قائمة على الحيادية والإنصاف بإخلاص وأمانة ، إلا أن الحق أنهم لم ينصفوا حتى الآن التاريخ الإسلامى . فالمستشرقون أساسًا قاموا بمطالعة الإسلام وقراءته . وفى أذهانهم وعقولهم خلفيات قائمة على الخلْط بين الإسلام والمسيحية ، والإسلام واليهودية والمشرق والمغرب ، وقد قاموا أولا بالهجوم الواضح الفاضح الذى يدل فقط على كراهيتهم الشديدة للإسلام ، ولا شىء غير ذلك ، ثم تدرج المنهج مع تطور العقل ، فترك المستشرقون أسلوب الكراهية الواضحة والعداء الواضح واتجهوا للتستر وراء الطريقة العلمية ، وطريقة العرض التى تحمل بين طياتها إثارة الشبهات والشكوك فى التاريخ الإسلامى بطريقة خبيثة ، فأدّوا بذلك مهمتهم على أحسن وجه ، ونجحوا فى خداع البسطاء ممن انطوت عليهم حيل المستشرقين الخبيثة !!

الاتجاهات الجديدة فى كتابة السيرة والتاريخ

لقد بدأ اتجاه جديد لكتابة السيرة والتاريخ الإسلامى فى العصر الحاضر . وهذا الاتجاه يقوم على مطالعه التاريخ الإسلامى طبقا لنظرية التفسير الاجتماعى والاقتصادى للتاريخ ، وهى نظرية حديثة . وهكذا بدأ العديد من المؤلفين والمؤرخين ، من بينهم مسلمون ، بتتبع العوامل والمحركات والدوافع الاجتماعية والاقتصادية أثناء مطالعاتهم لجوانب التاريخ الإسلامى ، وقام البعض منهم يضع نصب عينيه – سلفًا – نظرية الصراع الطبقى والجدلى للاشتراكية ، والنظرية القائلة بالتفسير المادى للتاريخ ، وهكذا صاغوا التاريخ الإسلامى على أساس أنه تاريخ للصراع الطبقى ، وهكذا يرى هؤلاء المؤرخون الاشتراكيون أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية هى المسئولة عن حركة التاريخ الإسلامى ، وليس العوامل السياسية أو الدينية !!

وطبقا لنظريتهم هذه فلا وجود لتأثير العوامل الدينية والأخلاقية فى التاريخ ، ويمكن أن نرى النتائج الخطيرة ، والتأثير العميق للأفكار المتعلقة بالنظريات الاشتراكية والعوامل الاقتصادية لدى المستشرق الألمانى هوبرت كرايم (Hubert Crime) ود . س . مارغليوث D.S.Margoliatt والمستشرق برنس لون كتان (Prince Leen Caetain) وبرنارد لويس (Bernard Lewis) ومكسيم رودنسن (Maxime Rodinson) . هذا بينما نرى (مونتجمرى وات) يركز كثيرا على وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية وذلك من خلال كتاباته التاريخية .

ومن بين المؤرخين المسلمين نرى عبد الحى شعبان الذى يمثل الأسلوب الاشتراكى فى الكتابة ونرى الكاتب اليسارى المصرى أحمد عباس صالح ،

ورصيفه محمود أمين العالم ، وأخيرًا محمود إسماعيل وعبد المنعم ماجد بدرجة كبيرة هذا بينما يمثل وجهة النظر الجديدة أو الاتجاه الجديد المسمى بالاتجاه الطبى ، أو اتجاه علم الأمراض Pathological كل من اسبرنجر Sprenger ، وهنرى لامنس Henry Lammens ، وتور اندريه Tor Andre وطبقا لنظرياتهم قام هؤلاء المستشرقون فجنوا ثمرات طيبة لخدمة الاستشراق فى باب سيرة الرسول وفى التاريخ الإسلامى .

المؤرخون المغرضون والانتهازيون :

إلا أن أخطر طبقة من هؤلاء هم أولئك الذين يجرحون فى التاريخ الإسلامى ويطعنون فيه ، وذلك بما لديهم من طبع سيئ ، ومكر وخبث ودهاء ، فأدعياء علم التاريخ من المؤرخين والمؤلفين ، يقومون بالبحث فى رواياتنا ومصادرنا ، فينتقون من بينها الروايات والشروحات التى تخدم أهدافهم وأغراضهم الرامية إلى تصديق المزاعم والأفكار التى يعتقدونها سلفًا ويؤمنون بها مسبقا ، وبالتالى ، وعلى بعض المواد والمعلومات المنتقاة والمخلخلة أقاموا بنيان كتاباتهم التاريخية الجاهلة من أولها إلى آخرها ، من أول لبنةٍ فيها حتى آخر طابق فيها .

ومن الغريب أن هؤلاء الأدعياء الماسخين للتاريخ حين لا يجدون معلومات أو روايات تؤيد ادعاءاتهم ، يقومون بإطلاق العنان لخيالاتهم . فيثبتون أحداثا ووقائع تاريخية بعيدة كل البعد عن الواقع ، وذلك من خلال مطالعاتهم لما بين السطور ، وعلى كل حال فإن اتجاههم هذا لا يقوم فقط على الافتقار إلى التمييز بين الصحيح والخطأ من المصادر والمراجع ، أو بين المسند والضعيف من الأخبار ، بل هم يقبلون الروايات الخاطئة والضعيفة ، ويصرفون النظر عن الروايات الصحيحة .

وهذه الطبقة من المؤرخين فى معظمها إنما يقوم أصحابها بعرض الروايات

التاريخية بطريقة معوجة معكوسة ملتوية ، ليخرجوا من وراء ذلك بنتائج تحقق هدفهم ، رغم أنها من الناحية التاريخية خاطئة تمامًا .

وهناك جريمة أخرى يرتكبها هؤلاء يمكن أن نلاحظها فى كتاباتهم وهى أنهم لا يوثقون بياناتهم وتفسيراتهم بذكر مصادر معتمدة لأية رواية . وذلك لأنها قائمة أساسًا على مزاعمهم وعلى أهوائهم وميولهم ، ولا وجود ألبتة لمصادر تؤيد مزاعمهم وافتراءاتهم ، وإذا ما ذكروا مصادر تؤيد مزاعمهم فهى فى معظمها مصادر مشبوهة أو مرفوضة !!

ومن أمثال هؤلاء المؤرخين نذكر بالهند « المؤرخ » البروفيسر (خورشيد أحمد فاروق) فكتاباته ما هى إلا مجموعة من الروايات المخلوطة من هنا وهناك التى تنتهى بالضرورة إلى التفسيرات الخاطئة والنتائج الممسوخة .

ونذكر من المؤرخين العرب (جورجى زيدان وفيليب حتى) وآخرين يندرجون تحت هذه الطبقة ، ومع أنهم يندرجون تحت تصنيف المؤرخين المستشرقين إلا أنه لا فرق بينهم وبين من يدعون التاريخ والتأليف من المستشرقين من ناحية المحركات والوسائل والأهداف ، فهم يشتركون معًا فيها للوصول إلى هدف واحد ، وهو تشويه حقيقة التاريخ الإسلامى . ولا بد ـــ لكى تتحقق الأهداف ـــ من أن تأخذ طريقة كتابة هذه الطبقة وأسلوب استدلالها الطابع الذى يميز طريقة كتابة العلماء ، مما يُرهب القارئ ، ويؤثر فيه بحيث لا يتمكن من إدراك ما وراء كتاباتهم هذه ، ولا يتمكن من فهم بياناتهم الخاطئة وتفسيراتهم المسقطة على الوقائع والموجهة لأهداف محددة .

المؤرخون المنحازون

يندرج تحت طبقة المؤرخين المنحازين بعض العلماء والمفكرين المسلمين الجدد ممن قاموا ببحث فترة ما من فترات التاريخ الإسلامى ، أو عصر حكم

من التاريخ الإسلامى بحثًا تاريخيًّا تفصيليًّا ، وهؤلاء ممتازون وبارعون فيما يتعلق بتبحرهم العلمى ، وصلابتهم الدينية وفكرهم العالى ومطالعتهم الواسعة ، ومعلوماتهم الوفيرة وقدرتهم على النقد والتحليل . كما أن دوافعهم ونواياهم ليست خالصة لوجه الله . وهؤلاء أمامهم مشكلتان يعجزون حقيقة عن علاجهما ، المشكلة الأولى هى أنهم رغم ما لديهم من علم وفضل يفتقرون إلى الإدراك التاريخى السليم . وذلك لأن تربيتهم ونشأتهم العلمية لم تكن لتؤهلهم ليكونوا مؤرخين .

والمشكلة الثانية هى أن هؤلاء افتقروا إلى أصالة المنهج وعمق التفكير فى كتاباتهم التاريخية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهم يقيمون بعض نظرياتهم بناء على أفكارهم وميولهم ومزاعمهم التى اعتنقوها وآمنوا بها قبلًا ، ولم يتمكن هؤلاء من التخلص من هذه الأمور حتى وقت كتاباتهم لكتبهم وأبحاثهم . بل اعتبروا كتاباتهم القائمة على الأفكار والمزاعم التى يعتنقونها هى التفسير الصحيح للقيم الإسلامية والتاريخ الإسلامى .

وكانت النتيجة المنطقية لهذا الأمر ، أنهم يشاهدون مجرد جانب واحد من الصورة ، فيعرضون هذا الجانب الواحد فقط للآخرين ، ومن الواضح أن يجد هؤلاء من يميل إلى نظرياتهم تلك ، وقد أدى بهم سلوكهم المنحاز هذا إلى قبولهم للأخبار والروايات التى تتفق مع نظرياتهم وأفكارهم ، ثم يغفلون أو يتغافلون تماما عن جميع الروايات والأخبار التى تتعارض مع خططهم المحددة أو يمرون عليها مرورًا سريعا . إلا أن السبب الأهم لسلوكهم هذا هو جهلهم بالمعلومات الحديثة ، مما نتج عنه ورود تفسيراتهم وشروحاتهم الخاصة بالتاريخ الإسلامى منحازة وتعالج جانبا واحدًا ، كما جاءت ناقصة غير مكتملة ، وهناك أمثلة على هؤلاء المؤرخين ممن كتبوا بالأردية فى شبه القارة الهندية الباكستانية وممن كتبوا بالعربية فى مصر ولبنان . وكنموذج لقد بحث بعضهم موضوع

تطور وسقوط نظام الخلافة الإسلامية ، وقدم نظريته التى يؤمن بها ، ودافع عنها دون عرض لوجهات النظر الأخرى .

اتجاه خطير

وهناك اتجاه فكرى خاطىء غير إسلامى ترك آثارا سلبية خطيرة على التاريخ الإسلامى ، وهو الاتجاه المتمثل فى نظرية التفريق بين الدنيا والدين ، أو بين الدين والدولة ، ومن المسلم به أنه لا مجال - أىّ مجال - لهذه النظرية فى المبادىء الإسلامية ، فهذه النظرية من نتاج الرهبانية النصرانية ، وقد دخلت الإسلام عن طريق التصوف الذى خضع بدوره إلى تأثره بالفلسفات المسيحية والبوذية والهندوكية ، فطريقة الزهد والتنسك فى الحياة فى القرون الأولى إنما كانت ردّ فعل للمادية الشديدة وحب الدنيا الذى طغى وسيطر بشدة على بعض طبقات المجتمع الإسلامى .

فقد قام الزهاد والنساك المسلمون بخوض معركة الدفاع عن الدين حتى يقيموا التوازن بين الدين والدنيا ، وهو الأمر الذى يمثل أساس الإسلام . وكان هذا الأمر بذاته هو هدف التصوف الإسلامى فى البداية إلا أنه حين بدأت عناصر غير إسلامية تدخل فيه كانت النتيجة التى لمسناها هى التفريق بين الدين والدنيا ، فانكمش الدين ليصبح مجموعة من الرسوم قائمة على بعض العبادات ، وأصبحت السياسة والتجارة والزراعة والحكم والخدمات العسكرية كلها من أمور الدنيا التى يصبح الارتباط بها ضروريا للنجاة الأخروية والفلاح الدنيوى . ولقد قام بعض الخلفاء المسلمين والسلاطين وبعض الولاة والحكام فأوضحوا أن السياسات الخاطئة ، والأعمال غير الصحيحة ليست من الإسلام ، وأدوا بلاشك فريضة النهى عن المنكر وأقاموا الأصول الإسلامية ، إلا أنهم من جانب آخر لم يحاولوا محاولة جادة الوقوف فى وجه الاتجاهات اللا إسلامية ، فلم يؤدوا مبدأ « الأمر بالمعروف » بل اتجهوا بدلا من هذا إلى

الخانقاهات والتكايا ، و لم يكتفوا بهذا بل نصحوا الآخرين أيضا بالابتعاد عن الحكم والسياسة ، مما نتج عنه تكاثر عدد الأشرار ورجال السوء داخل ديوان الحكم ، ويوما بعد يوم أصبحت مناصب السياسة والسلطة غير إسلامية .

ومن ناحية أخرى فإن النزوع إلى السلبية وعدم التعاون مع الحكومة لم ينتشر فقط بين الناس ، بل أصبحت فكرة تقويم الحكومة فكرة تتعارض مع الإسلام . وكذلك أصبح التعاون والاشتراك مع الحكومة اتجاهًا غير إسلامى .

وهكذا لم يعد علماؤنا والرجال الصالحون فينا والغالبية العظمى من عامة الناس معارضين فقط لحكومة زمانهم أو على الأقل غير متعاونين معها ، بل أصبحوا أدوات لمحاولة إضعاف هيئات الحكومة الإسلامية وسياستها ، وكان أكثرهم السبب فى الضعف السياسى ، وتطور الهيئات السياسية بطريقة غير طبيعية ، أو زوالها من البلاد الإسلامية .

وليس من سبب حقيقى لهذا السلوك سوى هذه السلبية لهؤلاء العلماء والمتصوفة وعامة الناس الرافضين للإسهام فى صناعة التقدم ، وللأسف فقد أخذ هذا الاتجاه الخطير المتحيز له المؤرخون اتجاهـا وسلوكًا عامًّا ، بعد أن مسح بجرة قلم جميع خدمات الخلفاء والحكام المسلمين .

وقد ظهر هذا السلوك وهذا الاتجاه بوضوح تام فى التاريخ الإسلامى بعيد النصف الثانى من القرن الأول ، و لم يكن هناك فرق فى هذا بين مؤرخينا وبين المؤرخين الآخـرين من غير أهلنا ، وهكذا جاءت جهود العلماء الانتهازيين ونظائرهم من المفكرين والمؤرخين ناقصة وخاطئة .

وقد استغلوا الحيل الشرعية والخدع الفقهية ، واستفادوا منها لتحقيق أهدافهم ، فجعلوا يشْرحُونها بطرق عكسية أحيانا وملتوية أحيانا أخرى ، وهكذا أخطأوا أيضا فى كتابة التاريخ ، وبناء على مجموعة من الأعمال أو

الإجراءات اللا إسلامية أو اللا أخلاقية جعلوا جميع إدارات الحكومة وإدارات الحاكم كلها غير إسلامية . وكان الواجب عليهم أن يتبعوا الأسلوب الصحيح ، فيثبتوا خطأ ما هو خطأ ، وينقدوه بموضوعية ، ثم يبرزوا ويؤيدوا ما هو صحيح ، وذلك لأن عمل المؤرخ فى الحقيقة إنما هو تنقيح الروايات وتحليل الأحداث والوقائع التاريخية ، وعليه فإن إصدار الفتاوى والأحكام الإجمالية العامة يخرج تماما وبأى حال من الأحوال عن دائرة عمله !!

ونحن فى الصفحات المختصرة التالية سنقوم بتحليل معظم الهجمات المغرضة والحملات الفاسدة التى عممها أصحابها على مختلف عصور التاريخ الإسلامى

وهنا يظهر سؤال هام وهو : ماهى عصور التاريخ الإسلامى ؟

إن عصور التاريخ الإسلامى تتضمن بلا شك العهد النبوى حين كان الإسلام فى أوج قوته وعظمته الدينية والدنيوية . ولا شك أنه يتضمن أيضا زمان الخلافة الرشيدة ، حين كانت أمور الخلافة تمضى طبقا للقرآن الكريم والسنة النبوية ، ولكن هل يتضمن التاريخ الإسلامى أيضا عصور الخلافة الأموية والعباسية ، حين تسربت بعض العناصر اللا إسلامية فى الحكومة والسياسة ؟ وما هو الاسم الذى يطلق على مختلف عهود الحكومات الإسلامية فى زمان انحطاط الخلافة العباسية ؟

إننا سوف نجيب على هذا السؤال بعد التحليل التاريخى لكل حكومة وخلافة ، وبطريقة أصولية ، ولا شك أنه يمكن الإجابة على هذا السؤال بطريقة أصولية ، وهو أنه لا يوجد شكل خاص أو إدارة معينة للحكومة والسياسة فى الإسلام . والحكومة والسلطة التى مضت طبقا للأصول الإسلامية هى حكومة إسلامية وسلطة إسلامية . وتتصف بإسلاميتها طبقا للقدر الذى مضت عليه طبقا لهذه الأصول ، وبقدر ما تتعارض سياستها مع هذه الأصول بقدر ما

تكون غير إسلامية ، ولقد قام علماؤنا ومفكرونا ومؤرخونا بوضع الحكومات الإسلامية منذ زمان العهد النبوى وحتى زماننا على محك تلك الأصول ، فأصدروا قراراتهم بإسلامية هذه الحكومة وعدم إسلامية تلك الحكومة . ولم يستطع واحد من المؤرخين المنصفين أن ينفى إسلامية الدولة الأموية أو الدولة العباسية أو الدولة الأيوبية ؟ أو المملوكية أو دولة العثمانيين - على الأقل من ناحية الأصول - فضلًا عن خضوع خلايا كثيرة فى الحياة للنظام الإسلامى فى هذه الدول العظمى .. وبالتالى فهى داخلة - بكل المقاييس - فى عصور التاريخ الإسلامى .. حتى وإن اختلفنا مع بعض صور التطبيق فيها كما هى سنة الله فى الحياة البشرية !!

وعلى كل حال فنحن - من ناحية الهجمات المغرضة - سوف نقتصر فى عرضنا هذا على تحليل العهد النبوى وعهد الخلافة الرشيدة ؛ إذ إن الغارات الفكرية المغرضة على التاريخ الإسلامى بأكمله أمر يحتاج إلى مجلد ضخم !!

العهد النبوى (٥٧١ - ٦٣٢/ - ١١ هـ)

على الرغم من أن كتابة السيرة تعد طبقا للأصول الحديثة جزءًا من التاريخ إلا أنها لا تمثل بحد ذاتها تاريخا ، فالسيرة النبوية تستثنى من هذه الكلية ؛ ذلك لأن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى لازم وملزوم ، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما الآخر ... يمكن أن يكتب شىء عن الجزء الخاص بالفترة السابقة للبعثة فى السيرة النبوية ، إلا أنه من ناحية أخرى يعد جزءًا من التاريخ الإسلامى ، ذلك لأن هذا الجزء من السيرة لا يمكن فصله عن شخصية الرسول الأكرم ﷺ ، رغم أنه يتضمن السنوات الأربعين الأولى قبل بعثته ﷺ تلك التى تتضمن خلفية هامة وضرورة للكتابة عن الإسلام ، وتجب مطالعتها لفهم التاريخ الإسلامى . هذا بالإضافة إلى أن عددًا من الكتاب المغرضين قد حاولوا النيل من هذا الجزء من السيرة النبوية لتحقيق أهدافهم الذميمة ، ومن هنا وجب الرد عليهم ، حتى يمكن كشف وجوه الحق حول سيرة الرسول ﷺ ، وحتى يمكن الوقوف على حقيقة الدوافع والمحركات الكامنة وراء هذه الهجمات التى تركت آثارها على التاريخ الإسلامى ، فيتم تداركها بطريقة صحيحة .

الاسم والنسب :

تتفق جميع مصادر التاريخ الإسلامى تقريبا أن مولده ﷺ كان فى عام الفيل ، وأنه سُمى بمحمد وأحمد ، وطبقا لقول ابن إسحاق فإن آمنة تلقت الإلهام بتسميته بالاسمين بنداء من هاتف غيبى ، ورغم أن المؤرخين لا يعترفون بهذه الرواية الغيبية . لأنها ليست رواية تاريخية ثابتة ، إلا أن الجميع يعترف بأن هذين الاسمين قد أطلقا عليه فى النهاية ، وتشهد الأحاديث النبوية والمصادر التاريخية بصحة هذه الحقيقة شهادة كاملة . ولم يكن إنكار المستشرقين وبعض

المؤرخين المحدثين الاعتراف بالسند التاريخى لهذين الاسمين راجعا لمجرد جهلهم وعداوتهم الشديدة ، بل قاموا بتحوير اسمه الكريم مرة بعد مرة ، وتجنبوا عمدًا وقصدًا ذكر اسمه صحيحا على ألسنتهم .

وفى النهاية وفى العصر الحديث اضطر الجميع إلى الاعتراف بالحقيقة التاريخية ؛ لأن إنكار هذه الحقيقة سوف يمزق ستار علميتهم وموضوعيتهم .

لقد ظل المستشرقون ومن مضوا فى ركابهم من المؤرخين الآخرين يطعنون فى حسب ونسب الرسول الأكرم ﷺ فراحوا يحطون من قدر نسبه ، ويقللون من قدر حسبه ويقولون بأنه من أسرة اجتماعية متواضعة ، وقد قام مرجليوث ومن تبعه بوضع افتراضهم على هذا الزعم الباطل بأن والده المحترم (عبد الله) توفى قبل مولده ﷺ ، ومن هنا كانت حالته المالية عليه الصلاة والسلام بعد يتمه غير طيبة ، وبناء عليه اتجه ﷺ فى طفولته إلى احتراف رعى أغنام أهل مكة ، وبخاصة عمه أبى طالب ، وهذا فى رأيهم دليل على تدنى المستوى الاجتماعى ، وقد أغفل جميع هؤلاء المؤلفين والمؤرخين الشواهد التاريخية التى تثبت أنه أحد أفراد أسرة بنى هاشم ، وهى من الأسر التى تتمتع بأشرف نسب ، وكان لها شرف السيادة فى الأشهر الحرم على قريش مكة طبقا للأصول آنذاك ، ومن هنا كان ينظر إليها نظرة إعزاز واحترام فى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية ، وكان لبنى هاشم شرف تحمل مسئولية السقاية بين أشراف قريش ، وكل هذا لا يدل أبدا على تدنى المستوى الاجتماعى ولا على الضعف المالى كما زعم المؤرخون والمستشرقون . هذا بالإضافة إلى أنه قد اشتهر فى العرب آنذاك أن يقوم أبناء الشرفاء والأحرار برعى ماشية الأسرة ؛ لأن الرعى كان حرفتهم ، وكان دليلا على ثراء العديد من القبائل .

هذا وتبالغ بعض الروايات من مصادرنا ومراجعنا فى أن بنى هاشم كانت لها السيادة الكاملة فى مكة المكرمة وبخاصة حتى موت عبد المطلب ، وكان

جميع زعماء القبائل والشيوخ تحت إمرتهم ، ومن بين من بالغ فى الأمر فوقع فى الخطأ مولانا شبلى النعمان ، وبعض المؤرخين المسلمين ، وقد رأى أنه بعد وفاة عبد المطلب خرجت السيادة القومية والحكومة من بنى هاشم وتحولت إلى بنى أمية والدليل على هذا هو أن قائد جيوش قريش فى حرب « الفجار » كان من بنى أمية ، بينما الحقيقة هى أن السياسة المكية كانت قائمة أصلا على أسس وأصول تحدد المسئوليات وتحدد الإشراف عليها ، وطبقا لهذه الأسس فقد كانت جميع بطون قريش تنال كل منها مسئولية معينة بصورة تتساوى فيها البطون جميعها ، فإذا كانت السقاية فى بنى هاشم ، فقد كانت الرفادة فى بنى نوفل ، والقيادة فى بنى أمية ، والحجابة فى بنى عبد الدار ، وهكذا كانت هناك عشر مسئوليات تم تقسيمها على مختلف الأسر فى قبيلة قريش فى زمان قصى بن كلاب جد قريش الأكبر .

وتتضح هذه الحقيقة فى جميع مصادر السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى مثل تاريخ مكة المكرمة للأزرقى (المتوفى ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) والفاكهى (المتوفى ٢٧٢هـ/ ٨٨٥ - ٨٨٦م) وغيرهما .

المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية :

أثيرت قضية المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية ، وأرادت بعض الروايات فى مصادرنا أن تثبت أن هذه المنافسة بين هاتين الأسرتين - اللتين تنتميان إلى عمومة واحدة من رجلين عظيمين من بطن بنى عبد مناف بدأت منذ عهد الجاهلية ، واستمرت حتى وصلت إلى زمان هاشم وحرب بن أمية ، بل صدرت بعض الروايات - التى لا يمكن تصديقها أو قبولها بحال من الأحوال - عن هذين الاثنين ، وطبقا لهذه الروايات فإن أصحابها كما يظهر يحاولون إثبات أن المنافسة التى جرت بين الاثنين هى بذاتها نفس المنافسة التى استمرت بينهما طوال فترات العهد الإسلامى ، والتى جعلت بنى أمية يواجهون

ويعارضون بنى هاشم ، بل جعلتهم أعداء يناصبونهم العداء على الدوام ، وهكذا قام بنو أمية – كما يدعى هؤلاء زورا – بمعارضة الإسلام ونصبوا المؤامرات ضد الحكومة الإسلامية ، وبعد أن نجحوا فى خططهم تلك استولوا غصبًا على الحكم ، وحين أصبحت السلطة فى أيديهم أوقعوا الظلم والقهر ببنى هاشم . كل هذه الاتهامات التى لو نزلت على جبل لحطمته ، ملأ بها الرواة المغرضون والمؤرخون الذين لا يمتون للتأريخ بصلة روايات مصادرنا التاريخية .

إن أساس قضية المنافسة بين بنى هاشم وبنى أمية يجب أن ننظر إليها أصلًا فى ضوء خلفية اختلافات الفتنة الكبرى ، وهى الفتنة التى أدت إلى الأمر المفجع الذى أدى بدوره إلى شهادة ثالث الخلفاء الراشدين ، فلم تكن هناك منافسة بصورة أساسية بين هاتين الأسرتين ، لا فى زمان الجاهلية ، ولا فى عهد الرسالة ، ولا فى زمان الخلافة الرشيدة بطوله . فكلتاهما ليستا فقط من أهم أعضاء بنى عبد مناف بل بينهما صلة قرابة متينة لا تنفصم عراها أبدًا ، وبينهما صلة من المحبة والانسجام لا تنقطع أوصالها بأى حال من الأحوال . فابن عبد المطلب بن هاشم أبو لهب ، وابنتاه أم الحكم بيضاء وصفية ، هؤلاء كانوا ينتسبون إلى أسرة بنى أمية . كما أن صلة المصاهرة هذه ظلت قائمة فى أسرة رسول الله ﷺ ، وفى أسرة عمه أبى طالب بن عبد المطلب أيضا .

وهكذا كان بين عقيل بن أبى طالب الهاشمى ، ورسول الله ﷺ علاقة زواج مع الأمويين : السيدة زينب ، والسيدة رقية والسيدة أم كلثوم ، وبعدها قام رسول الله ﷺ نفسه بالزواج من ابنة أبى سفيان السيدة أم حبيبة وظلت سلسلة المصاهرة والزواج مستمرة بين هاتين الأسرتين بل توطدت العلاقات أكثر فأكثر فى زمان العهد الأموى . كما أنه لا يندر أن نجد أمثلة للزواج والمصاهرة فى العهد العباسى .

وبالإضافة إلى صلة المصاهرة فإن رابطة العلاقات التجارية والاجتماعية بين الأسرتين كانت قوية واستمرت على هذا المنوال سواء كان ذلك فى العهد الجاهلى أو فى العهد الإسلامى ، وكانت العلاقة بين أبى سفيان الأموى والعباس الهاشمى تتسم بالمحبة والمودة ؛ إذ كانت علاقاتهما وثيقة ومتينة . وتحليل الصلات والعلاقات التى ربطت بين الأسرتين تحليلا يشمل جميع جوانبها يدل على أن ما قيل عن منافسة غير ودية بينهما لا أساس له . وما ذكر فى المصادر التاريخية يدلنا أيضًا على أن هذه الروايات قد صيغت أو تم « تلفيقها » فبولغ فيها ، وجاءت هكذا بما حملته من مبالغة فى مصادرنا التاريخية .

وهذه المحاولات ماهى أصلا إلا صدى للميول العدائية لبنى أمية ، التى جعلت الرواة من أعداء بنى أمية يسلكون هذا السبيل من أجل مسخ هذا العهد الأموى العظيم فى التاريخ الإسلامى ، بالإضافة إلى أن المؤرخين الجدد (من الماركسيين وغيرهم) ممن حاولوا تفسير التاريخ على أساس فكرة الصراع بين الطبقات وجدوا فى تلك الروايات مأربهم فراحوا يصبغون التاريخ الإسلامى على أساس وجهة نظرهم الشيوعية ليجعلوه تاريخ صراع بين الطبقات .!!

حياة الرسول – المرحلة الأولى :

قام بعض المؤرخين المسلمين المحدثين بتحوير بعض الوقائع البديهية فى حياة رسول الله ﷺ ، ثم راحوا يفسرونها تفسيرات حديثة ويشرحونها شرحًا جديدا ، هذا بينما اعتبر المستشرقون جميع أحداث سيرة الرسول قبل بعثته روايات غير تاريخية أو مجرد حكايات .

وهكذا لم توضع جميع وقائع ولادة رسول الله ﷺ ، وطفولته وفترة شبابه الأولى على محك التاريخ الموضوعى عند المستشرقين وطبقا لتحليل فيليب حتى ، رغم أنه – أى محمدا ﷺ – ظهر فى نور التاريخ الكامل ، إلا أننا نجد عدة

روايات صحيحة فقط تتعلق بحياته فى مراحلها الأول ، وفى كسبه للعيش وسعيه وجهده فى محاولاته لبناء شخصيته وتطويرها ، وإعداد نفسه للمهمة العظمى التى تولاها فيما بعد .

ونرى الفكرة نفسها لدى أعظم المستشرقين فى العهد الحديث « مونتجمرى وات » الذى يعترف تماما بتاريخ ولادته عليه الصلاة والسلام وتاريخ وفاة والدته وتربية جده عبد المطلب ورعايته له ، ووفاته ، ويعترف بعد ذلك بإشراف عمه أبى طالب عليه وتربيته ورعايته له وبكل ما رافق ذلك من وقائع ، إلا أنه من ناحية أخرى يقر بأن جميع الوقائع والحقائق الأخرى ، ماهى إلا روايات تتعلق بالعقيدة وهى حكايات أسطورية .

وبصفة عامة يكذب المستشرقون رواية تربيته ورعايته فى بيت حليمة السعدية فى مضارب بنى سعد بن بكر وهذا هو رأى بعض المؤرخين المسلمين المحدثين أيضا ، فهم يزعمون أن هذه الرواية لا وجود لها فى التاريخ الإسلامى كله ، ولا فى عهد الجاهلية ، والرواية المقبولة لدى هؤلاء أنه عليه الصلاة والسلام أرسل إلى مكان ما بالبادية ليتدرج فى التربية تحت إشراف مرضعته ، وهذه دعوى بلا شك غير صحيحة ، فمثل هذه الوقائع العديدة نجد لها شواهد وعلامات فى الحديث والسيرة وكتب أسماء الرجال . ويروى البخارى أنه بعد ولادة رسول الله ﷺ فإن أمه آمنة أرضعته أولا ، وبعد ثلاثة أيام أرضعته ثويبة أمة أبى لهب وطبقا للرواية فإن حمزة أيضا قد أرضع عن هذه الأمة لعدة أيام ، وعليه فهو بالإضافة إلى أنه كان عمه فى النسب فهو أخوه فى الرضاعة وقد ذكرت عدة روايات موثوق بها هذه الصلة . إلا أن المؤرخين المسلمين المحدثين أنكروا واقعة إرضاع ثويبة للنبى لمجرد أن هذا الأمر لا يليق بالنبوة ، أو أنه قد يعدّ دليلا لدى من يريدون الطعن فى النبوة ، ويعطون دليلا فحواه أن الله تعالى — طبقا لما جاء فى القرآن الكريم — قد حرم على موسى عليه السلام

أن يرضع لبن أية امرأة أخرى غير أمه ، هذا بينما لم تكن علة التحريم فى موسى أن يحفظ من رضاعة امرأة غير محترمة بل كان الهدف الأساسى – وهو ما ذكره القرآن الكريم – هو العودة إلى أحضان الأم مرة أخرى ، فكيف يفهم بعضهم ، وعلى أى أساس – أن إرضاعه من امرأة أخرى يقدح فى عظمة كونه رسولا ؟!! وقد ارتبطت واقعة إرضاع حليمة السعدية للنبى ﷺ ببعض المعجزات والكرامات ، وبعض هذه الروايات ضعيف وغير مسند ، ولكن هذا لا يعنى بدوره رفض الواقعة كلها – وهو مالا يتماشى مع الصدق التاريخى ، ولا شك أن مسلك المؤرخين المسلمين المحدثين غير صحيح بالمرة .

وهكذا كذبت هذه الطبقة من المؤرخين المسلمين الروايات الخاصة برعاية أبى طالب للنبى ﷺ ، ويريدون أن ينال عمه الأكبر الزبير بن عبد المطلب شرف تربيته رسول الله ، وقد أقاموا هذا القياس المجرد طبقا للرواية القائلة بأن الزبير خلف والده ، كما كان ثريا أيضا ، ولهذا فهو الأليق بتربية ابن أخيه ، ودليلهم على ذلك أيضا هو أن أبا طالب لم يتمكن لضيق ذات يده أن يقوم بتربية ورعاية عقيل وعلى ، ولهذا أودع الاثنين – على الترتيب – تحت رعاية العباس بن عبد المطلب والنبى ﷺ .

وهذا استدلال سقيم من عدة وجوه . أولها أنه ليس من الضرورى أن يكون الإنسان الثرى بأقدر على الرعاية والتربية ، فالمحبة والشفقة أكثر ضرورة للتربية والرعاية الصحيحة من المال والثروة وتلك هى التربية التى نالها النبى ﷺ فى بيت أبى طالب .

وحتى وفاة أبى طالب فقد كانت حياته كلها مرآة لشفقته التى لا حدود لها ، ولحبه العظيم له . ثم إن أبا طالب حين كان يرعى رسول الله ﷺ ، كان فى شبابه ، كما لم يكن معدما أو فقيرا كما يظهر ، إذ إن واقعة رعى

رسول الله لماشيته إن دلت فإنما تدل على أنه لم يكن معوزا أو معسرا بل كان ميسور الحال ، وطبقا لدستور العرب كان امتلاك ماشية الرعى دليلًا على الثروة والغنى .

ومن ناحية النقد التاريخى ، فإن هذا الاستدلال أيضا غير صحيح ؛ لأنه حين أصبح رسول الله ﷺ فى كفالة أبى طالب ، لم يكن عقيل ولا على قد ولدا بعد بل ربما لم يكن لأبى طالب آنذاك أولاد ، ومن هنا فلم يكن ثمة عبء فى كفالة أحد .

ومن الصحيح أن العباس والنبى الأكرم كانا تحت رعاية أبى طالب ، لكن من المعروف أن الرسول وعمه أبا طالب صارا من تجار مكة المعترف بهما ، بينما فى وقت وفاة عبد المطلب كان رسول الله ﷺ فى الثامنة من عمره وكان العباس فى الثانية عشرة وحمزة فى العاشرة .

وهكذا فإن جميع محاولات المؤرخين هؤلاء إنما ترجع إلى رغبتهم فى أن يسلبوا أبا طالب وأسرته شرف كفالة النبى .

وفى النهاية نقول إن واقعة سفر أبى طالب إلى الشام ومقابلته لبحيرا الراهب إن لم تدل على ما كان لأبى طالب من ثروة فإنها تعبر بصدق عن أنه كان ميسور الحال ؛ لأن أيا من تجار مكة لم تكن لديه القدرة آنذاك على إرسال قافلة أو المضى بقافلة إلى الشام دون أن يكون صاحب ثروة كبيرة أو معقولة على الأقل .

قصة بُحيرا الراهب :

رغم أن المستشرقين ومن حذا حذوهم من المؤرخين ينكرون جميع وقائع السيرة الأولى أو يعتبرونها مجرد أساطير لا تاريخا ، إلا أنهم يذكرون واقعة أو

قصة الراهب بُحيرا بطريقة أو بأخرى ، حتى يتمكنوا من إثبات أن الرسول ﷺ قد تعلم جميع أصول وقوانين الإسلام وفلسفة الدين بأكملها من راهب مسيحى أثناء سفره (وعبوره !!) إلى الشام .

ومن الجدير بالاهتمام أن أكثر المؤرخين المسلمين المعتمدين ونقاد الحديث وعلماء الجرح والتعديل ينفون هذه القصة ، ويعتبرونها من حيث أصول الرواية والدراية قصة موضوعة ، إلا أن المستشرقين الذين ادّعوا تحليلها ونقدها لا يقولون فقط بصحة هذه القصة ، بل يعتبرونها القصة الوحيدة التى تشير إلى نبوءة البعثة النبوية قبل وقوعها بحوالى ٢٨ سنة تقريبا ، وهكذا يجعلون الإسلام فى صورة المستفيد من المسيحية فى تشكيل الدين !!

ولم تتبادر حقيقة هامة إلى أذهانهم : كيف أن صبيًّا عمره ١٢ سنة لم يتلق أى تعليم نظامى يمكن أن يفهم بعقليته البسيطة الأصول الفلسفية للدين وقواعد فكره العالمية وأصوله المعقدة ؟ ثم أليس هناك تضاد ظاهر فى هذا القول ، فالمسيحية التى راجت آنذاك فى الشام ومصر ، كم كانت مختلفة عن الإسلام من ناحية العقائد والأصول . بل إن تصور الدين والعقيدة فى المسيحية والإسلام تصور مختلف ومنفصل تماما كما اعترف بهذا « مونتجمرى وات » والمستشرقون الآخرون . وهو ما سنوضحه فى بحثنا بعد ذلك .

وعلى كل حال فسواء كانت رواية بحيرا الراهب صحيحة أو غير صحيحة مسندة أو ضعيفة ، وسواء اعترف بها علماء المسلمين والمؤرخون أم لم يعترفوا ، فإنها رواية صحيحة لدى معظم المستشرقين الذين لجئوا إلى التعصب الدينى بدلا من إعمال الإحساس والشعور التاريخى واستخدام الاستدلال التاريخى وأسلوب البحث الصحيح ، مما جعلهم يقررون أن الإسلام مأخوذ من المسيحية .

رسول الله ﷺ فى شبابه :

والواقعة الثانية فى جملة الوقائع الهامة التى حدثت قبل البعثة المحمدية كانت

عام ٦٩١م وهى أن الرسول الأكرم قد اختار لنفسه حرفة التجارة ، واشترك فى حرب « الفجار » وفى سنة ٦٩٥م تزوج النبى من خديجة ، وحين كان عمره ٣٥ سنة اشترك فى تعمير الكعبة وحلف الفضول . وقد حاول المستشرقون أن يمروا على هذه الأحداث فى عمومها مرّ الكرام . بل غضوا أنظارهم تماما عن أمر احترافه ﷺ للتجارة حتى يثبتوا أن ثروته إنما كانت نتيجة لزواجه من خديجة ، وقد عبر « حتّى » عن هذا الزواج بقوله : « فى زمان يصل بنا إلى دهاليز الفترة التاريخية المضيئة !! » أى أنه قبل ذلك كانت أحداث حياته ﷺ أساطير وخرافات وهذا زعم مرجعه تعصب « فيليب حتّى » الدينىّ ، وإلا فالحقيقة أن حياته ﷺ من المهد إلى اللحد كانت مرآة واضحة أمام تاريخ مضىء فى بيت الزمان .

أما « مارجوليوث » فيتهم السيدة خديجة ورسول الله ﷺ اتهامات باطلة ، فيقول إنهما كانا وهما نائمان يقومان بعبادة صنم يدعى « عُزّى » وكان هدف المستشرق سابق الذكر أن يثبت فقط أن عبادة الأوثان التى شاعت فى مكة قبل البعثة تركت أثرها عليه ﷺ .

هذا بينما أراد « وليم ميور » أن يثبت من خلال قصة بُحيرا الراهب أن واقعة لقاء الرسول مع الراهب وما أخذه عنه من تعاليم كانت سببا فى كراهية الرسول الأكرم لعبادة الأوثان ، وطبقا لبيانات المستشرقين سابقى الذكر ومزاعمهم تلك ، وللسبب نفسه نلاحظ التضاد الظاهر فى بيانات كلٍّ منهما ، بينما أساس أفكارهما لا يقوم على أية حقيقة صحيحة ، بل يقوم على مجرد القياس والتخمين ، ولهذا كان استدلالهما بأكمله استدلالًا مضللًا ويتعارض مع الحقائق التاريخية .

وقد خرج « مارجوليوث » من أسفار الرسول التجارية بنتائج محيرة وهى أن ما جاء ذكره فى القرآن الكريم من السفن التى تمشى فى البحر والطوفان

وغير ذلك من أمور إنما ترجع إلى التجارب والمشاهدات الذاتية للرسول ﷺ[1] وعليه قام المؤرخ المذكور – بناء على قياسه وظنه – بالزعم بأن الرسول سافر إلى مصر أيضا . مع أن جميع كتب التاريخ الإسلامى تخلو من هذه القياسات الضالة المضللة والنتائج العجيبة .!!

والهدف الذى يرمى إليه المستشرق من ذلك هو أن يثبت عن طريق الاستدلال أن القرآن الكريم هو من كلام الرسول ، وليس بالكلام الإلهى ، بينما يثبت بالروايات التاريخية وبطريقة متواترة أن كلام القرآن الكريم هو كلام من عند الله ، أنزله من اللوح المحفوظ نزل به جبريل الأمين على فؤاده ﷺ .

ويحاول كثير من مؤرخينا المعاصرين بعامة والمستشرقين بخاصة أن يثبتوا أنه بعد زواج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة ، تحسنت أحواله المادية ولهذا ترك العمل بالتجارة وبقية الأعمال الأخرى ، وبدأ الانصراف إلى العبادة والرياضة الروحية وهذه النقطة تعطى دفعة لإثبات هدفين لهؤلاء .

الأول : هو أن ثروته كلها كانت بسبب اعتماده على ثروة السيدة خديجة .

والثانى : أنه بعد أن تحسنت أحواله المادية انصرف عن مشاغل الدنيا وأعمالها ، وانصرف إلى العبادة والرياضة بينما يتضح من الروايات أنه ﷺ ظل يعمل بالتجارة بعد الزواج ، كما كان قبل الزواج إذ عمل بالتجارة وهو فى العشرين ، وعلى العموم لقد اعتمدت حياته التجارية على تجربته الطويلة لعشرين سنة نال خلالها تجارب متنوعة ، وأضافت أيضا إلى ثروته . كما يثبت من الروايات أن « التحنث » [الرياضة والعبادة] الذى كان يقوم به ﷺ إنما كان لشهر واحد (رمضان) خلال السنة بأكملها ، أما باقى السنة فكان

---

(١) قال لى أحد الأساتذة اليابانيين أنه يؤمن بمحمد رسولا وبالقرآن كتابا منزلا من عند الله وسبب إيمانه بذلك ما ورد ذكره فى القرآن عن الزلازل ومن المعروف – يقول الأستاذ – أن الجزيرة العربية منطقة خلت تماما من الزلازل ، ودقة الوصف فى القرآن لا يمكن أن يأتى بها بشر . (المترجم)

يقضيها فى أداء واجباته الدنيوية ومنها التجارة أيضا . واستمر هذا إلى آخر أيام حياته قبل البعثة وفى هذا الخصوص نرى روايات كثيرة جدا فى مصادر مختلفة ، إلا أنها غير واردة بشهورها وسنواتهاحتى يمكن تحديد التدرج التاريخى أو الترتيب التاريخى لحياته التجارية طبقا لذلك .

وما جاء ذكره فى القرآن الكريم فى سورة الضحى عن ثروة النبىّ وغناه إنما يتعلق بزمان عمله بالتجارة ، وطبقا لروايات المفسرين الكبار فإن هذه السورة تتعلق بالفترة الأولى لما بعد البعثة مباشرة ، وما ورد فيها من ثروة إنما يرجع إلى ثروته الشخصية التى لم تكن مرهونة بمنّة أحد غيره . ولهذا فما يريد المستشرقون إثباته من فكرة الرهبانية إنما هو أمر خاطئ ، فحياته ﷺ كانت كلها جهدًا وجدا وكفاحًا وعملا متواصلين .

البعثة النبوية (رمضان ١٣ قبل الهجرة/ ٦١٠م)

إن أكبر اعتراض أثاره المستشرقون هو اعتراضهم على الوحى الإلهى الذى أنزله الله تبارك وتعالى عن طريق الروح القدس على رسول الله ﷺ . ومن أسباب اعتراضهم عدم درايتهم بالمصادر الإسلامية وجهلهم بحقيقة الوحى الربانى ، وأكثر من هذا تعصبهم الدينى وعداوتهم للإسلام ؛ لأن أكثر المستشرقين إما أنهم مسيحيون وإما أنهم يهود . ولهذا فهم يدركون أنهم إن اعترفوا بنزول الوحى الربانى فإن هذا يعنى اعترافهم بالرسالة المحمدية ، وهذا يعنى عندهم إنكار نبوة موسى وعيسى عليهما السلام . وهذا مالم يكونوا على استعداد له أبدًا . ومنذ البداية وحتى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . شاع فى الغرب أن الوحى الذى نزل على محمد (خداع) Imposter ، واتهم الرسول ﷺ بأنه خدع الناس بإيهامهم بتلقى الوحى الربانى وذلك حتى ينال لنفسه أهدافا سياسية واجتماعية واقتصادية .

وبعد ذلك بفترة ظهرت قصة اليمامة ، وكانت من خرافات العقل الأوربى ، وطبقا لهذه الأسطورة فإن يمامة كانت تجلس على كتف الرسول وكانت تلتقط من أذنه الحب وهكذا كان يوهم الناس أنها تخبره بالكلام الإلهى . ولا نرى ضرورة للحديث عن هذه القصة الخرافية التى لا معنى لها . فجانبها الخرافى واضح وأظهر من الشمس أما « لامانس » فهو يقرر أن الوحى الإلهى كان نتيجة أضغاث أحلام ونتيجة لحدس ذاتى (Outo - Suggestion) هذا بينما يرى البعض أن نزول الوحى كان نتيجة غيبوبة طارئة أو نتيجة لخداع حسّى أو هلوسة أو هذيان hallu cination ، بينما كان عند البعض الآخر شيئا ملازما لحالات الهستيريا .

و « نولدكه » الذى نال فى الغرب اليوم درجة جعلته يعرف هناك كمفسر للقرآن يرى أن الوحى كان نتيجة لحالات عصبية حين تنتهى يحدث الوهم ، ويحدث ما يتبع ذلك من إلهام .

أما « وليم ميور » – الذى يعد مؤرخ الإسلام – فيكتب أن الرسول ﷺ قد انتابته الشكوك والشبهات فيما يصله من إلهام وفى هدفه النبوى ، ولهذا ظل لفترة طويلة حائرًا وبعد فترة طويلة أخرى ، وحين تأكد عن طريق عامل من العوامل الخارجية أنه نبى بدأ مهمته فى تبليغ ونشر الإسلام ، وقد خرج هذا المستشرق سابق الذكر نتيجة لتفسيره الخاطئ لبعض الروايات وعجزه عن فهمها فهما صحيحا بالقول بأن السبب فى ذلك كان « الطعام » الذى يأكله الرسول .

وقد كشف عدد من المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة الستار عن حقيقة ما ادعاه هذا المستشرق المذكور من مهارة بالعربية – فقد كان ضعيفًا ، وكان يتمتع بالخبث والتفكير الفج المعوج وكان أصيلا فى عداوته وحقده على الإسلام .

وعلى الرغم من هذا فقد قام بعض مستشرقى القرنين التاسع عشر والعشرين برفض جميع الأفكار والنظريات الفجة – والتى تقول بأن الوحى كان مجرد وهم وادعاء كاذب . أو أنه كان حالة من حالات الغيبوبة الطارئة أو هزة من هزات الأعصاب إلى غير ذلك .

والسبب فى رفضهم لها هو عدم إمكانية إثباتها عن طريق مصادر التاريخ الإسلامى ، كما أنها لا تبدو معقولة فى ضوء العقل والمنهج العلمى ونمو المعرفة الصحيحة .

وقد اعترف كثير من المستشرقين بصدق رسول الله ﷺ ، وأنه رسول

صادق مثله مثل الأنبياء السابقين ، وأن الوحى كان ينزل عليه من عند الله القدوس . ومع ذلك فما زالت العقيدة المسيطرة على الغالبية العظمى من هؤلاء المستشرقين هى أن الوحى الربانى الذى نشاهده اليوم فى صورة القرآن الكريم المكتوب هو فى الحقيقة من صنع ذهن محمد ومهارة عقله . وأنه قد استفاد فى ذلك بالتأثيرات المسيحية فى منطقة الشام ، واستفاد بتعليمات الإنجيل والتوراة .

وما أعجب هذا الأمر ، وما أغرب أن يقول المؤرخون النصارى : إن القرآن مأخوذ عن تعليمات عيسى عليه السلام ، بينما يرى المؤرخون والمفكرون اليهود أنه استفاد من تعاليم موسى ، إلا أن الأعجب من هذا وذاك أن المؤرخين والمفكرين المسيحيين واليهود يغضون أنظارهم تماما عن أن يعلنوا أو يظهروا هذه الحقيقة فيما يتعلق بالقرآن الكريم وهى أن القرآن الكريم جاء مصدقا ومكملا للتعليمات الإلهية الصحيحة الموجودة فى التوراة والإنجيل والصحف السماوية الأخرى فهو لم يرفضها ولم ينسخها ابتداءً . وإذا كان للمستشرقين وأتباعهم أن يفهموا ويقروا الحقيقة القائلة بأن الإسلام دين أزلى وأبدى نزل من عند الله الرحيم لهداية البشرية منذ زمان آدم عليه السلام . وقد ارتقى الدين مع رقى العقل والفهم الإنسانى ، فى أزمنة مختلفة حيث أرسل الله أنبياءه ورسله . واكتمل الدين من عند الله ببعثة محمد ﷺ ، ليصبح الإسلام هو الدين الإلهى الوحيد إلى يوم القيامة ... لو آمنوا بهذا الأمر بعد فهمهم له لما ظهرت الشكوك ، ولا الشبهات ، ولا المشكلات ، ولا الألغاز التى أثاروها ، والتى تظهر أن رؤيتهم للإسلام ، لا تقوم على أى أساس موضوعى نابع من فقه بالإسلام نفسه .

ويجب هنا أن نفهم نقطة أخرى ، وهى أن الشرائع التى تنزلت على جميع الأنبياء السابقين . إنما كانت مناسبة لزمانهم ومتماشية مع ظروف مستواهم الحضارى .

إلا أن الشريعة المحمدية قد اكتملت الآن وهى القانون الإلهى الذى لا يتغير ولا يتبدل فى جميع الأزمنة . رغم أن العقائد والأصول الدينية لدين محمد هى التى كانت فى زمان الأنبياء الكرام السابقين . فعقائد التوحيد الإلهى والرسالة ونبوة الرسل ، والآخرة كانت نفسها تمثل الأصول الشاملة للديانات السابقة ، وهذا هو السبب فى أن المنصفين والمحققين والمعاصرين الذين عرفوا للرسول حقه ، حين سمعوا عن الرسالة الإلهية اعتبروها على الفور ميراثا لأنبيائهم الكرام ، فقبلوها وآمنوا بها . وتصرح المصادر الإسلامية أن ورقة بن نوفل – وهو يمت بصلة قرابة إلى السيدة خديجة وكان عالما مسيحيا – هذا العالم حين سمع تفصيلات نزول الوحى على رسول الله صاح قائلا : والله إن هذا لهو الناموس الذى نزل على موسى عليه السلام !!

والنجاشى إمبراطور الحبشة المسيحى حين سمع خطاب جعفر بن أبى طالب ممثل المهاجرين المسلمين لم يصدق فقط برسالة محمد ﷺ بل إنه حين سمع الآيات القرآنية التى نزلت فى سورة مريم فى حق عيسى عليه السلام قال : إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة . وعالم المدينة المنورة اليهودى عبد الله بن سلام اعترف بنبوة الرسول الأكرم من أول لقاء به ، وقرر أن رسالته إنما هى تكملة ومتممة لنبوة وشريعة موسى .

وخلال مراحل التاريخ الإسلامى المختلفة يمكن تقديم الأدلة والشواهد التى لا تعد ولا تحصى ، والتى تثبت أن الرسول الأكرم ﷺ هو آخر حلقة من حلقات سلسلة الأنبياء الكرام وهو خاتمهم .!!

ومع أن الأغلبية العظمى من المستشرقين فى العصر الحديث جعلوا من نزول الوحى الإلهى على رسول الله محمد ﷺ موضع شك فى نظرهم ، إذ لا يمكن بحكم ارتباطاتهم – أن يقولوا شيئا يؤيدها علانية ، إلا أنهم راحوا يستفيدون من أصول التأريخ الحديثة فقالوا بأن الوحى والنبوة والرسالة أمور ميتافيزيقية

أى أمور غيبية ، لهذا فهى خارجة عن تجربة الإنسان ومشاهداته ومن هنا فهى تخرج عن دائرة المؤرخ ؛ لأن المؤرخ يصدق أو يرفض الروايات والأخبار المتعلقة بالوقائع الحسية والتجارب الواقعية ، أما نزول الوحى فهو تجربة يمر بها النبى فقط ، ولهذا فلا يمكن لشخص آخر أن يصدقها أو يرفضها ، ولهذا يجب على المؤرخين أن يتوقفوا عندها .!!

ويرى المستشرق المعاصر المشهور بميوله الإسلامية وهو « مونتجمرى وات » أن المؤرخ لا يستطيع أن يقول إنه كان وحيا إلهيا بحق ؛ إذ إن الوحى أمر يخرج عن دائرة بحث المؤرخ .

وطبقا لأصول البحث التاريخى الحديثة ، فليس من عمل المؤرخ أن ينكر نزول الوحى الإلهى أو أن يقره ، وليس من شأنه أن يصدقه أو يرفضه ، لأن هذا يخرج عن دائرة عمله ، ولكن يجب – مع ذلك – أن نسلم أيضا بهذه الحقيقة وهى أن التصديق بنبوة رسول ورسالته إنما يكون قائما على مطالعة شخصية الرسول وسلوكه بعد إعلانه النبوة والرسالة ، وبناء على تحليل أو نقد للرسالة التى يقدمها . وعلى هذه الأسس يقوم المؤمنون بهؤلاء الرسل أو الأنبياء دائما بالاعتراف بنبوة ورسالة أنبيائهم . وصحيح أيضا أن هذه التجربة الميتافيزيقية التى يطلق عليها الوحى لا يمر بها أحد آخر سوى النبى . ولكن لو أن هناك شهادات على مروره بهذه التجربة ، ولوشهد من شاهدوا هذه التجربة بعيونهم ، حينئذ يصبح الأمر واقعة تاريخية على المؤرخ واجب الاعتراف بها ، ولو قام عدد من الأفراد أو جماعة من جماعته بتصديقه تصديقا كاملا ، فإن هذه أيضا تعد واقعة تاريخية تؤيدها التجربة الروحانية التى سبقت التأييد وعلى المؤرخ أيضا أن يعترف بها .

وطبقا لأصول البحث يمكن أن نرى شهادات المعاصرين فيما يتعلق بنزول الوحى الإلهى على محمد ﷺ ونرى كم وصلت درجة اعترافهم بعظمة

شخصيته ، وكم صدقوا بكل يقين جوانب رسالته . ويفهم من تحليلنا للمصادر أن هذا الأمر تجاوز الحد تواترا من ناحية الشهادة التاريخية ، فهناك جم غفير من المعاصرين يشهدون بكل الحق على صدق رسالته ﷺ ونزول الوحى عليه ، وعظمة شخصيته .

وإذا ما تركنا هؤلاء وتركنا مؤيديه جانبا فإن معارضيه أيضا قد اعترفوا برسالته ﷺ رغم أنهم « يؤمنون به بقلوبهم وينكرونه بألسنتهم » . ثم هناك حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها ، وهى أنه بعد تبليغه لدين الله لمدة ٢٣ سنة عرف جميع أهل شبه الجزيرة العربية تقريبا حق الرسالة التى قدمها لهم ، واعترفوا وفهموا وآمنوا بالكلام المنزل من عند الله على رسوله ، وآمنوا تماما بأنه رسول الله وأن القرآن كلام من عند الله وأنه وحى أوحى إليه . وهذه أكبر حقيقة تاريخية على نبوته وعلى رسالته ، وهى شهادة خالصة على ذلك يجب على كل مؤرخ أن يعترف بها ، ولا يمكن لأحد أن يُنكرها إلا إذا كان متعصبا بعيدا عن الأصول والأخلاق الإنسانية والمنهج العلمى المحايد .

تعاليم القرآن الكريم :

وكما يقوم المستشرقون وأتباعهم من المؤرخين الجدد بتوجيه النقد المغرض البعيد عن أصول التأريخ إلى الوحى الإلهى ونزوله – يقومون أيضا بتوجيه اعتراضات وإلصاق شبهات بتعاليم القرآن الكريم وتدوينه ، ومن أهم الاعتراضات التى يوجهونها إلى تعاليم القرآن الكريم . بعض الاعتراضات التى يمكن أن تلتبس عليهم والتى تتعلق بالظروف المكية التى نزل الوحى يعالجها مواكبًا ظروف البيئةمثل تعليمات الإنفاق والسخاء والنجدة وغيرها[1] ، إلا أن البعض الآخر من اعتراضاتهم مما يتعلق بالأحكام السياسية فهى بلا شك

(١) فكأنهم يرون أن القرآن استجابة للبيئة العربية وتحدياتها فقط !!

اعتراضات لا محل لها على الإطلاق ، وترجع هذه الاعتراضات إلى قصور فى فهم هؤلاء المعترضين أساسًا وعدم إدراكهم للسور والآيات المكية والمدنية وعدم فهم أحكامها .

إن مطالعة القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتفاسير والتاريخ الإسلامى توضح أن أحكام القرآن الكريم كانت تنزل طبقا لمستلزمات الوقت الحاضر ، وضرورات المجتمع المسلم ، وقد امتدت هذه السلسلة عبر فترة طويلة وصلت إلى ربع القرن تقريبا .

ونزول الوحى تدريجيا كما هو معروف من القرآن الكريم إنما كان لحكمة خفية ، فقد كان القرآن هاديا للأمة الإسلامية آنذاك ، ولم يكن لينزل مرة واحدة . فلا تستطيع الأمة أن تحمله . وكان هذا التقدير الإلهى قاضيا بأن تتطور جميع الهيئات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية طبقا لمستلزمات العصر ، وهذا الأمر فى حد ذاته يحمل بين طياته إثبات صدق الرسالة والنبوة المحمدية ، ولو أنزل القرآن الكريم دفعة واحدة لكان من الممكن ألا يكون هناك من يشهد على نزوله ، وإن وجدوا فإنهم سيكونون قلة ، فخلال ربع القرن المذكور شاهد الآلاف من الناس بعيونهم وسمعوا بآذانهم القرآن ينزل على رسول الله ، وليس هذا فقط بل إن نزول الأحكام الإلهية طبقا لمستلزمات الوقت والزمان كان أمرًا مُشاهدًا . وما أورده المستشرقون حول عدم موافقتهم على ظروف بعض تعاليم القرآن ، إنما هو أمر يرجع أصلا لقلة مطالعاتهم وقصور فهمهم ، وإلا فإن القرآن الكريم ، كان مطابقا تماما لظروف حياة المسلمين ، وهو بالإضافة إلى ذلك يوضح طريق الهداية للبشرية كلها حتى يوم القيامة .

تدوين القرآن :

فيما يتعلق بتدوين القرآن الكريم ، فطبقا للروايات الإسلامية ، تم ذلك بطريقتين طبقتا فى العهد النبوى .

الأول بعد نزول الوحى ، إذ لم تحفظ الآيات المنزلة بتمامها فى قلب النبى فقط ، بل قام ﷺ بتعليم صحابته ما أنزل عليه ، وتلاوته ، وتحفيظه لهم ، وهناك حقيقة مهمة وشيقة وهى أنه – علاوة على المسلمين والمؤمنين – فإن أعداء الإسلام أيضا قد حفظوا الكثير من آيات القرآن ، ويُعرف من الروايات أن مشركى مكة كانوا يذهبون خفية فيستمعون إلى تلاوة الرسول للقرآن فى الصلوات ، ثم إنه ﷺ كان يتلو القرآن الكريم أثناء تبليغه للدين الحنيف فى أوقات عديدة مستشهدا بها فى المواضع المناسبة ، وكان هذا هو الحال بالنسبة للصحابة أيضا ؛ إذ تصادفنا فى كتب التاريخ أكثر من واقعة تأثر بها الكفار بعد سماعهم لتلاوة أبى بكر الصديق وغيره للقرآن الكريم .

والطريقة الثانية أنه منذ العصر المكى الأول قام ﷺ بمهمة حفظ القرآن الكريم مكتوبا . ويفهم من روايات التاريخ الإسلامى المتعددة أن عددا من الصحابة الكرام فى مكة المكرمة قد كلفوا بمهمة كتابة القرآن الكريم . وهذا صحيح وتعترف به المصادر والمراجع الإسلامية ، وتوضح أيضا أن القرآن الكريم لم يكن مرتبا فى صورة كتاب في العهد النبوى ، بل وُجد مكتوبا على أشياء متعددة ومختلفة إلا أن الحقيقة التاريخية التى لا يمكن لأحد أن ينكرها هى أن القرآن الكريم قد حفظ مكتوبا داخل فؤاد النبى ﷺ بالإضافة إلى أنه حفظ فى فؤاد وعقل مئات بل آلاف من الحفاظ . وهذه أيضا حقيقة أو مسلمة تاريخية . إذ إن عددًا من كتاب الصحابة كان كل منهم قد أعد صحيفة فى العهد النبوى كتب فيها معظم السور وهكذا ، وبالنسبة لقضية تدوين القرآن الكريم نقول بأن القرآن كله من سورة الفاتحة إلى سورة الناس ، كما هو موجود اليوم فى شكل المصحف المتداول هو بذاته ما حفظ فى ذاكرة الصحابة ، وما كتب فى صحائفهم ، وعلى أشياء متعددة ومتنوعة .

ويثير المستشرقون عامة ، والمعاندون الجدد خاصة هذا الاتهام القائل بأن تدوين القرآن كان فى العهد العثمانى (أى على عهد عثمان بن عفان) رغم أن جميع هؤلاء المؤرخين والمؤلفين لا ينكرون الشواهد التاريخية المذكورة سابقا ، والتى تشهد على تدوين القرآن الكريم فى العهد النبوى ، بل إنهم ينكرون أيضا الحقيقة القائلة بأنه فى العهد الصديقى كان القرآن الكريم قد رُتب فى شكل مصحف .

وقد ثبت ثبوتًا متواترا أنه بناء على طلب عمر بن الخطاب فإن الخليفة الأول أبا بكر الصديق كون جماعة ومجلسًا من الصحابة الكرام ، كان على رأسهم حافظ القرآن وكاتبه الشهيد زيد بن ثابت الخزرجى ، وقام هذا المجلس بجمع جميع السور المكتوبة لدى الصحابة الكرام ودوّنها فى شكل كتاب ، وكان هذا هو أول مصحف ، وهو الذى عُرف باسم المصحف الصديقى أو المصحف الأعظم ، وبعد استشهاد عمر الفاروق كان هذا المصحف محفوظا لدى أم المؤمنين السيدة حفصة ، وقام عثمان رضى الله عنه بإعداد نسخ من هذا المصحف الصديقى ، وأرسلها إلى أمصار وديار الدولة الإسلامية حتى تكون كتابة القرآن ونطقه وقراءته ماضية على نسق واحد ومستوى واحد ، وألا يوجد فيها أى نوع من أنواع الاختلافات ، أما ماسخو التاريخ الإسلامى فقد أنكروا جميع هذه الحقائق البديهية وقاموا بترويج أفكار لا أساس لها من الصحة لمجرد أنهم من القائلين بالتحليل والنقد التاريخى فى هذا الموضوع ، وهدفهم المسبق بالطبع هنا هو أساسًا صد الناس عن كتاب الله ، فإذا لم ينجحوا فى هدفهم هذا فليعملوا بعد ذلك على ابتلاء الناس - على الأقل - بسوء الفهم ، وبلبلة الأفكار ، وغرس الشك والشبهات فى أذهان المسلمين الأميين أو قليلى التعليم وإقناعهم بأن الكلام الإلهى لم يكن محفوظا ليصدوا الناس بذلك عن قبول الحق .

وهذا هو الواقع يشهد أنهم لم يستطيعوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فكل من يقرأ القرآن الكريم بذهن متفتح يرى نفسه مجبرًا على الاعتراف بأنه كلام من عند الله سواء اعترف بذلك أو لم يعترف .

تطور الدعوة الإسلامية فى العهد المكى :

قدم ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة تحليلا لتطور انتشار الإسلام فى مكة المكرمة ، وطبقا لما أورده فإن المسلمين الأربعة الأوائل كانوا : السيدة خديجة بنت خويلد الأسدى ، وأبا بكر الصديق التيمى ، وزيد بن حارثة الكلبى ، وعلى بن أبى طالب الهاشمى ، وقد أثبت ابن إسحاق بعد ذلك قائمة تضمنت أسماء الخمسين الذين أسلموا فى الدور الأول بالترتيب ، وهم الذين شرفوا بالإسلام فى بداية الدعوة الإسلامية ، وطبقا لما أوردته المصادر ، فقد انتشر الإسلام خارج مكة نتيجة لجهوده ﷺ وصحابته من المبلغين ، وبدأت القبائل وأفرادها الذين يقيمون قريبا من مكة تفد عليها ، كما بدأ نشر الإسلام فى المناطق المختلفة بفضل جهود المبلغين الذين ينتمون إلى تلك المناطق ذاتها وهكذا قام المبلغون المحليون بنشاط مشهود داخل مناطقهم فى سبيل نشر الإسلام .

ولو قمنا بتحليل الوضع القبلى والأسرى والاجتماعى وبخاصة للسابقين الأولين من مسلمى مكة لوجدنا أنفسنا أمام حقيقة واضحة تجلت فى أنه كان من بينهم أناس من جميع طبقات المجتمع المكى ، ومن بينهم أفراد ينتمون إلى أغنياء مكة المكرمة ورؤسائها ، ومع أن عددهم كان قليلا نسبيا فإن أكثرهم كان من شباب قريش الذين كانوا ينتمون إلى أشراف بطون قريش . وفى مقابل هذا دخل فى الإسلام بعض الفقراء وكان معظمهم من الموالى والغلمان .

ومن العجيب أن ينادى بعض المؤرخين المغرضين بأن جميع المسلمين الأوائل كانوا ينتمون إلى طبقات فقيرة معوزة .

ومن العجيب أيضا أن يقبل بعض المؤرخين المسلمين هذا الرأى القائم على التحليل الوهمى والبعيد كل البعد عن الواقع التاريخى ، بل بدأوا يضيفون قولهم : إن من قبلوا دعوة الأنبياء وفى البداية كانوا هم الضعفاء الفقراء وهذا يصدق على الأنبياء السابقين إلى حد ما كما يتضح من بعض آيات القرآن الكريم ، مثلَما يصدق أيضا من خلال مصادرنا حين تشير بعض الروايات والتعليقات العامة إلى أن المسلمين الأوائل كانوا ينتمون إلى طبقات ضعيفة ، ولكن هذا التحليل غير صحيح على إطلاقه .

والحقيقة أن الذين قدموا نظرية أن المسلمين الأوائل كانوا ينتمون إلى طبقات ضعيفة معدمة ، كانوا يرمون من وراء ذلك إلى هدف آخر ، وكانوا يريدون الخروج بنتيجة منطقية عن طريق هذا الهدف البعيد ، وقد وصلوا إلى مرامهم فيما بعد وتمثل هذا فى أنه لما كان مسلمو العهد المكى فقراء معدمين من هنا اضطروا إلى الهجرة من عالم الفقر هذا إلى المدينة المنورة، حيث كانت الحالة الاقتصادية هناك تختلف عما كانوا عليه قبلا فى مكة، ولهذا تحمل المهاجرون المسلمون مشقة الهجرة الشديدة وقد حاول هؤلاء المؤرخون أن يثبتوا فى الأذهان أن نظرة هؤلاء المسلمين الأوائل كانت مُنْصَبّة على الوصول إلى حالة من الرخاء الاقتصادى تخرجهم مما كانوا فيه من فقر وعسر . وهكذا قالوا بأن المسلمين ، طبقا لعادات العرب ودستورهم ، بدأوا سلسلة من الإغارة والهجوم على القوافل التجارية والقرى القريبة ونتيجة لهذا الهجوم وهذه الإغارة بدأت سلسلة الغزوات والسرايا بين المسلمين وغير المسلمين .

ولم يفهم المؤرخون المسلمون ما تضمره هذه الخطط والأهداف الخطرة بعيدة المدى للمؤرخين أعداء الإسلام والكائدين له ، ولهذا أخذوا يحللون ويدرسون أقوال هؤلاء المؤرخين ثم كان من المستلزمات الحتمية لدخول تأثيرات غير إسلامية على المسلمين ، أن اعتبر المسلمون الفقر والفاقة أمورا

قريبة من الروح الإسلامية ، بينما الغنى والثروة ، إن لم يكونا ضد الإسلام ، إلا أنهما منافيان للتقوى والورع – على الأقل – ومن هنا قبلوا هذه النظرية التى روجها المؤرخون المغرضون بينما هى نظرية خاطئة تماما من الناحية التاريخية . فالإسلام ليس ضد الغنى ، والحضارة الإسلامية ليست حضارة الفقر والفقراء !!!

معارضة الإسلام :

كما أن رصد سلوك القبائل والأسر المختلفة فى مكة تجاه الإسلام كان رصدًا غير تاريخى وغير دقيق وخاليًا من العمق فى أساس هذا الأمر ، بل كان قائما على عنصر العصبية القبلية والفخر الذاتى ، وقد ذكر المؤرخون المعارضون لبنى أمية أن بنى أمية كانوا أكثر الناس معارضة للإسلام لأنهم كانوا المنافسين التقليديين لبنى هاشم ، وقد خدع بعض مؤرخينا المسلمين بهذه النظرية .

ومن ناحية أخرى عرض بعض المستشرقين لنظرية عجيبة شيقة لكنها مضللة ، وتقول هذه النظرية إن بنى هاشم كانوا من الناحية الاقتصادية ضعفاء ولما كان رسول الله ﷺ قد قام بحركته الدينية ضد أكابر تجار مكة المكرمة فإن بنى هاشم ساندته وعضدته ، وهاتان النظريتان خاطئتان بصورة قاطعة ، وقد رُوِّجتا من أجل تشويه التاريخ الإسلامى عن طريق خطط مقصودة متعمدة .

أما بالنسبة لقضية معارضة بنى أمية للإسلام فهى من وجهة النظر التاريخية خطأ مؤكد ، وذلك لأن من بين المسلمين السابقين الأوائل أفرادا عديدين ينتمون إلى فروع بنى أمية المختلفة ، وفى العهد المكى قبل عدد من أفراد بنى أمية الإسلام ، من بينهم عثمان بن عفان الأموى ، وخالد بن العاص وأخوه عمرو ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعدد آخر .

أما فيما يتعلق بمساندة بنى هاشم للدعوة ، فمن المعروف أن بعض الأفراد قاموا بالمساندة بينما البعض الآخر بالمعارضة ، وأكثرهم أعرض عن قبول الإسلام ، ويبرز من بين المعارضين أبو لهب بن عبد المطلب ، وسفيان بن الحارث ، ومن بين من قبل الإسلام على بن أبى طالب وأخوه جعفر ، فضلًا عن عدة أشخاص آخرين .

أما فيما يتعلق بمساندة رسول الله ﷺ فقد كان لمحبة أبى طالب والعصبية القبلية دورهما وأثرهما إذ إن أى قبيلة فى المجتمع المكى لم تكن لتترك أحد أفرادها بدون حماية أو رعاية وإلا أصابها العار ، ومنعت العزة والفخار . وهكذا فإن مساندة أبى طالب لم تكن مساندة للإسلام أو المسلمين وإنما كانت لأحد أفراد القبيلة أى محمد بن عبد الله ... أى لمحض العصبية القبلية والحب الشخصى وليس لمبدأ الإسلام !!

ومن هذا المنطلق يجب أن نلاحظ أن معارضة الإسلام أو مساندته لم تكن قائمة على أسس قبلية ، إذ إن أعظم نجاح حققته الحركة الإسلامية أنها ضمّت بداخلها جميع أفراد القبائل والأسر منذ بداية الدعوة ، فمن ساند الإسلام ودافع عنه دافع عنه لأنه هو الإسلام ، الدين الحق سواء كان قد فهمه بطريقة جيدة أو لم يفهم ما بداخل الدين من أمور عقدية أو اجتماعية أو سياسية ، إلا أنه بالضرورة تأثر بتعليماته وعقائده الأساسية .

هذا بينما يقف الذى عارض الإسلام إنما عارضه وخالفه لأن الإسلام دين ومذهب سواء كان هذا فى جانب مصلحته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أم لا .

ومن الممكن أن يكون البعض قد عارض الإسلام بناء على عصبية قبلية ، كما تصادفنا رواية فى حق أبى جهل المخزومى ، إلا أن أية قبيلة أو أسرة لم تخالف رسول الله ﷺ لمجرد أنه كان من بنى هاشم أو من قريش . لأنه إن خالف

أخٌ محمدًا فإن أخًا آخر له يقوم بالدفاع عن محمد وحمايته بل وافتدائه . مثلما هو الحال بالنسبة لأخى أبى جهل المخزومى لأمه عياش بن أبى ربيعة المخزومى الذى أسلم ، ومن بنى مخزوم أيضا أعلن الأرقم بن أبى الأرقم ومعه عدد آخر الإسلام وكان من بين المسلمين الأوائل .

والأصل أن ما حدث بين الأسر من فرقة إنما كان سببه إعلان بعض الأفراد من الأسرة الواحدة لإسلامهم ، فكان الابن مسلما والأب كافرًا أو العكس ، أو يصبح الزوج مسلما وتصر الزوجة على البقاء فى الكفر أو العكس ، وقد يكون السيد كافرًا وغلامه يعلن الإسلام أو العكس ، ولقد كانت شكاوى شيوخ وأكابر مكة - الذين عاشوا على التقاليد القديمة والمثل العتيقة - من الإسلام قائمة على أن الإسلام أظهر فيهم خللا اجتماعيا ، فهو يفرق بين الدم والدم أى بين أفراد الأسرة الواحدة . ولهذا فالنظرية القائلة بأن بنى أمية كانوا من أكثر الناس مخالفة للإسلام قبل إسلامهم فى النهاية نظرية لا تؤيدها أدلة قوية بل هى نظرية باطلة ، ولئن كان أبو سفيان قد قاد كثيرًا من المعارك ضد الإسلام - قبل إسلامه - فلم يكن ذلك لعصبية قبلية ، بل كانت قيادة أبى سفيان لجيش مكة فى جميع معارك قريش بعد غزوة بدر لأنه كان قائدًا كبيرًا لقريش عامة وليس كفرد من أفراد بنى هاشم ، أو لأنه معارض للإسلام بصفة قبلية .

لقد كان وضعا فرضه عليه منصبه ؛ إذ كان يتولى مسئولية القيادة داخل أشراف قريش لكفاءته الشخصية وكان جيشه مكونًا من سائر قريش الذين لم يؤمنوا ...!!

تعذيب المسلمين :

حاول المستشرقون من ناحية أخرى مسخ باب مضىء فى التاريخ الإسلامى يتعلق بالتعذيب الذى تعرض له مسلمو مكة وذلك حتى يروج هؤلاء

المستشرقون لمفاسدهم وخططهم الخبيثة الرامية إلى بلبلة أفكار المسلمين ، فقد قام عدد منهم يدعى أن الإيذاء الذى وقع بالمسلمين من جانب قريش إنما كان قاصرًا على السخرية والتعريض والهجوم بالكلام والشتائم ، وأن التعذيب الجسمانى كان شيئا لا يذكر ، والروايات التى تصادفنا فيما يتعلق بتعذيب المسلمين فى المصادر الإسلامية ، توضح لنا مبالغة المؤرخين المسلمين ، مما دفع المؤرخين الآخرين إلى رفض مثل هذه الروايات بسبب تلك المبالغة .

والحقيقة أن إيذاء مسلمى مكة على يد قريش يُعد بابا مضيئًا فى التاريخ الإسلامى ، وهو دليل ثابت على غيرتنا وحميتنا الدينية ، ويعرف من الروايات الموثقة أن عددا من الصحابة وبخاصة الضعفاء منهم كانوا بلا حول ولا قوة وقد تعرضوا لظلم يحطم الصخر ويهز الجبال ، وقد مرّ بمراحل التعذيب تلك صحابة كرام من مثل بلال بن رباح الحبشى ، وخباب بن الأرت التميمى ، وعمار بن ياسر ، ووالديه ياسر وسمية ، وعدد من الغلمان والإماء من مثل زنيرة ، وأم عبيس وغيرهما تعرض بعضهم لحرّ الظهيرة . وقد وضعوا على صدورهم الأحجار كاللظى . وتعرض بعضهم للكى بالنار فى مواضع عديدة فى أجسامهم ، وتعرض بعضهم للضرب على الرأس حتى تفجرت الدماء منها ، هذا بالنسبة لأولئك الذين لم يكن لهم حول ولا قوة .

هذا كما تعرض رجال الأسر المعروفة للإيذاء والتعذيب على يد أقاربهم وذويهم . وممن تعرض للتعذيب عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعيد ابن يزيد العدوى ، وعدد كبير من السادة والسيدات الذين مروا بمراحل عديدة من العذاب .

والرسول ﷺ نفسه لم يسلم من أنواع الإيذاء والتعرض لشخصه الكريم وأكبر دليل على الظلم الذى حاق بمسلمى العهد المكى من مظالم قريش هو أن أكثر من مائة مسلم تركوا وطنهم وديارهم للنجاة من قهر قريش وظلمهم ،

ولجأوا إلى الحبشة واتخذوها مهجرا لهم .

ثم إن مامرّ به الرسول ﷺ وصحابته الكرام من جراء محاصرة شعب بنى هاشم ومقاطعتهم لهم مقاطعة اجتماعية إنما كانت مأساة استمرت مدة طويلة ، وهى إن دلت فإنما تدل على قدرة المسلمين على الصبر وضبط النفس .

وفى سفر الطائف أثبت الرسول ﷺ قدرته على الصبر حين أخذ المشركون يقذفونه بالحجارة حتى نزل الدم من رأسه المبارك .

هذه التضحيات هى باب يضىء على درب الحركة الإسلامية ، وهى مأثرة من التضحيات التى قدمها المسلمون الذين رفعوا لواء الإسلام ، ولا يعرف حق هذه التضحيات غير خالق العالم جل وعلا قال الله تعالى فى سورة التوبة آية ١٠٠ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وأَعدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ صدق الله العظيم .

إلا أن أعداء الإسلام من المؤرخين يحتمون داخل خيمة التحقيق والتحليل ، فيحاولون الإقلال من قيمة هذه التضحيات التى لا مثيل لها ، ويرجعونها إلى مجرد عصبية دينية أو قبلية والمؤرخون النصارى إنما يقللون – بطريقة شعورية أو غير شعورية – من تضحيات مسلمى العهد المكى عن قصد أو عن غير قصد حتى يمكنهم إيجاد مبرر لفرار بل وغدر حواريى المسيح عليه السلام وقت الشدة والمحنة ، أما المؤلفون اليهود فهم عن طريق هذا يريدون توجيه الأنظار بعيدًا عما حدث من حركات غير أخلاقية فى صحراء سيناء من المتآمرين ومثيرى الفتن على سيدنا موسى عليه السلام .

وطبقا للروايات الإسلامية ، وطبقا للترتيب والتطور التاريخى للأحداث فإنه يثبت أيضا أن قريشًا فى مكة قاموا بتضييق الخناق ، وحصار المسلمين فضيقوا على المسلمين سبل الحياة حتى اضطروا فى النهاية إلى الهجرة من أرضهم

التى ألفوها ومن وطنهم الذى عاشوا فيه ليهاجروا بلا متاع إلى أرض أخرى ومدينة أخرى لم يألفوا العيش فيها .

وأهم أسباب هجرة المسلمين إلى المدينة إنما تتلخص فى إيذاء قريش . هذا بينما ترى طبقة من المستشرقين أن الهجرة كانت للظلم الذى تعرض له المسلمون ويريد هؤلاء المستشرقون أن يثبتوا أن معارضة قريش لرسول الله وخلافها معه إنما كان نتيجة للأسباب الاقتصادية أكثر من كونه خلافا لأسباب دينية . وتهدف هذه الطبقة من المستشرقين إلى أن تجعل الحركة الإسلامية حركة قائمة على ردود فعل اقتصادية ومعاشية ، وأن تطعن فى مكانة الحركة الدينية أو تجعل العامل الدينى عاملًا ثانويا .

إلا أن الظلم الأكثر من هذا قام به أولئك الناس الذين قالوا فى نفس واحد ، بأن الرسول ﷺ كان قائدا وزعيما دينيا وأقروا أن الحركة الإسلامية كانت حركة اقتصادية واجتماعية أكثر من كونها حركة دينية ، وصحيح أن حركته حملت بداخلها عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية . وكان هذا أمرًا ضروريا ، إلا أنها كانت ذات توعية دينية مذهبية بالمقام الأول . أما الجوانب الأخرى كلها فتندرج تحت هذه النوعية وتتفرع منها . وبدون الدين الإسلامى لم تكن لها مكانة تذكر ، ولنقل إنها كانت ثمارا للحركة الدينية فالأساس كان فى الدين وفى الدين فقط .

قصة إله .!!

راج بين المستشرقين موضوع عجيب ، ويتعلق بقصه إله . وقد وردت قصة إله هذه فى المصادر الإسلامية كما يلى :

كان رسول الله ﷺ يقرأ فى حرم الكعبة الآيات (١٩/ ٢٠)[1] من

(١) يقول تبارك وتعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۝ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ . المترجم

سورة النجم . ثم قام وسجد لله تعالى سجدة شكر فقام شيطان وقرأ معه فقرة شيطانية خلطها هكذا « تلك الغرانيق وإن شفاعتهن لترجى » وتأثر بها الكفار فسجدوا إذ وجدوا أن هذا يعنى وجود سبيل للمصالحة بين الإسلام وبين مذاهبهم القديمة . وحين انتشر هذا الخبر بين المسلمين ، بل فى نواحى مكة ، أعلن أشراف مكة قبولهم الإسلام .

ويتضح أن المحدثين وناقدى الروايات يرون أن هذا الأمر وبخاصة الفقرة الشيطانية وقصة المزج فى الآيات القرآنية . كلها روايات غير صحيحة وموضوعة لا أساس لها من الصحة إلا أن المستشرقين بمالهم من طباع ظالمة ونظرة تحليلية خبيثة يقولون إن الفقرتين لم يأت بهما أىّ شيطان بل إن رسول الله ﷺ قام بمزجهما عمدًا وقصدًا حتى يضع شياطينهم فى مكانة قياسية ، فأضافهم على نظام العبادة الإسلامى فقد ضاق بمعارضتهم له . وأصبح على استعداد لأن يجرى معهم مصالحة دينية (نعوذ بالله)!!

إن أى شخص طالع الإسلام مطالعة صحيحة وهو يحمل حِسًّا وشعورا تاريخيا سليما يعرف جيدًا أن رسول الله ﷺ لم يكن أبدًا على استعداد لإجراء أية مصالحة من أدنى درجة مع أحد على أساس أى من العقائد أو الأصول . فما بالنا بعقيدة التوحيد التى هى أصل الأصول فى الإسلام والتى هى الأساس الرئيسى لدعوته وحركته . وإذا افترضنا – وهو محال – التسليم بدعوى المستشرقين هذه فإن هذا يعنى إجراء مصالحة وصداقة مع الشرك الصريح ، فأية ضرورة تبْقى الآن للإسلام ؟!!

لقد كانت عداوة قريش مكة والمشركين الآخرين من العرب للإسلام قائمة على هذا الأمر ، وهو أن الإسلام لا يدعهم يشركون مع الله أحدا غيره ، وأن يعترفوا بربوبية واحدة هى ربوبية أحكم الحاكمين وحاكميته المطلقة ، وأن ينفذوا ويطيعوا أحكامه جلت قدرته .

والحقيقة أنه عن طريق هذا الهجوم يريد المستشرقون الهجوم على التاريخ الإسلامى من الناحية النظرية ويلاحظ أنه يتضح من نظرياتهم تلك السطحية والتضاد . وعلى الرغم من أنهم لا يمكن أن يهزّوا بذلك عقيدة المسلمين فإنهم يريدون إدخال الشك فى أذهان بعض الناس ، ويريدون أن يمنعوا غير المسلمين من الاتجاه إلى بوابة الإسلام وإلى الدخول فى الحق ، وهذا هو الهدف الأساسى لهؤلاء الأعداء . وهو الهدف الذى يجب أن نكون على بينة منه ، وأن نقف يقظين فى مواجهته حتى لا نخدع .

الهجرة إلى المدينة المنورة :

أشاع المؤرخون المغرضون أن حالة مسلمى مكة الاقتصادية كانت سيئة ، لهذا خرجوا مهاجرين تجاه المدينة لا يملكون مالًا ولا متاعا .

وقد عرض المستشرقون والمؤرخون المغرضون لهاتين الفكرتين طبقا لخطة محكمة وهدف معين ، وقبل بعض المؤرخين المسلمين ذلك القول دون إعمال للفكر ، ولم يفكروا بالقطع أن هذا يعضد مؤامرة أعداء الإسلام ، ومن المعروف أن عددًا من مهاجرى مكة قد قدموا تضحيات لا مثيل لها ، لقد ترك العديد من المهاجرين أملاكهم ومتاعهم خلفهم وهاجروا ، خرجوا بأيديهم خالية تماما من كل شيء ، وبعضهم قد سلبتهم قريش جميع أموالهم ومتاعهم حين خرجوا تاركين مكة ، إلا أن الحقيقة أيضا تتمثل فيما ذكره ابن إسحاق والمؤرخون القدامى الآخرون [كتاب السوانح] ويفهم مما كتب هؤلاء أن عددًا من الأسر والأفراد المسلمين قد وفقوا فى نقل ممتلكاتهم معهم . والمؤرخون المغرضون والمخططون ضد الإسلام إنما يحاولون التشهير بسوء حال مهاجرى مكة الاقتصادية بالباطل حتى يثبتوا نظريتهم القائلة بأنهم هاجروا إلى المدينة نظرا لأنهم لم يتحملوا سوء أحوالهم المعيشية كأنهم يريدون أن يقولوا : إن أنصار المدينة كانوا سيئى الحال مثلا بسبب قتالهم معًا . ثم زادوا على ذلك بقولهم إن عددًا كبيرًا من المهاجرين قد ورد إلى المدينة خالى الوفاض مما مثّل

عبئًا ثقيلا على الحياة الاقتصادية بالمدينة نظرًا لنفقات قيامهم وإطعامهم . ومضى هذا النظام المؤقت – بطريقة ما – لعدة أيام ، ولكن حين انتهت جميع الوسائل فإنّ رسول الله ﷺ لم يكن أمامه من سبيل سوى أن يتبع طريقة المعيشة القديمة للعرب ، وهو استخدام أسلوب الإغارة على القوافل التجارية والإغارة على القرى المجاورة . وطبقا لادعاءات هؤلاء المستشرقين والمؤرخين فإنه من هنا بدأت سلسلة الغزوات والسرايا التى استمرت طويلا والتى كانت تقوم على غنائمها الحياة المدنية كاملة تقريبا !!

وادعاءاتهم هذه خاطئة بلا شك ، فمن الصحيح أن أنصار المدينة قد أظهروا تضحيات مثالية ، فقد استضافوا إخوتهم من المهاجرين فى بيوتهم لعدة أشهر ، وتواضعوا أمامهم ، وعاملوهم بكل حب واحترام ، واقتسموا معهم أملاكهم ، وأراضيهم ، وحتى بيوتهم التى تفيض عن حاجتهم ، وأشركوهم معهم فى التجارة والزراعة ومع ذلك فمن الخطأ القول : إن المهاجرين قد اعتمدوا على ثروة الأنصار وضيافتهم لهم ، ويتضح من الروايات أن جميع تجار مكة ، والحرفيين والعمال من المهاجرين كانوا قد انصرف كل منهم إلى حرفته وعمله ، وبدلًا من أن يحطموا الحياة الاقتصادية للمدينة ويربكوها شاركوا بنصيب فى ازدهارها وتطورها . لقد قام كلٌّ بما يستطيع أن يحسنه من صناعة وتجارة وزراعة .

وهناك موقف مشرف لعبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فإنه قد شكر مضيفه سعد بن الربيع شكرًا جزيلًا ، وسأله عن الطريق إلى السوق . ومنذ ذلك اليوم بدأ يكسب كثيرا بما له من مهارة فى التجارة حتى أنه فى أيام قلائل تمكن من أن يتزوج . ومن الصحيح أيضا أن هناك بعض الأفراد المعسرين الذين كانوا أنفسهم يعيشون حياة عسر فى مكة !!

لقد استطاع معظم المهاجرين بعد قدومهم إلى المدينة الاعتماد على أنفسهم

من الناحية الاقتصادية ونجحوا فى ذلك تماما .

المهمات الأولى :

طبقا للنظرية الاقتصادية التى ذكرها المستشرقون والتى أشرنا إليها قبلا ، وفحواها أن حياة المهاجرين الاقتصادية ، حين لم تصل إلى كيفية تمكنهم من الحياة بطريقة ما ، فإن رسول الله ﷺ سلك أسلوب الإغارة والنهب العربى القديم ، ولهذا جعل نصب عينيه أن يغير أولا على القوافل التجارية لقريش ، التى كانت تمر بالقرب من المدينة المنورة على طريق التجارة الدولى ، متجهة إلى الشام شمالًا وإلى مكة جنوبًا ، وهكذا وبعد الهجرة بستة أشهر أرسل أول سرية ، وجعل على رأسها عمه حمزة بن عبد المطلب الهاشمى ، وأمرها بالاتجاه إلى طريق التجارة الرئيسى ، إلا أنه لم ينجح فى الإغارة على قوافل قريش ، وهكذا أرسل الرسول تباعا ، ولمدة سنتين سبع مهمات سرايا ، وقاد بنفسه أربعة منها إلا أنه لم ينل منها غنيمة لكن المهمة الثامنة وقد كانت عند مكان يدعى نخلة ، وكانت بقيادة عبد الله بن جحش وقبل غزوة بدر ، كانت هناك قافلة ضخمة لقريش متوجهة إلى الشام . وقد أراد الرسول أولا أن يوقفها بالقرب من هذا الطريق . وانتظر عودتها لكنها فاتته . فاضطر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى مواجهة الجيش الذى قدم لإنقاذ قوافل قريش القادمة ، وهو ما نتج عنه غزوة بدر .

ولو استخدمنا التحليل والنقد التاريخى ، فإنه فيما يتعلق بالمهام الأولى الثمانية قبل غزوة بدر يفهم من المصادر أنه لا توجد أية شهادة عينية أو رواية واضحة فيما يتعلق بأهداف جميع هذه الغزوات والسرايا يمكن أن يفهم – أو يثبت منها بالدليل أن دوافعها ومحركاتها كانت اقتصادية . ولابد أن يقول بعض كتاب السيرة وبعض المؤرخين المسلمين إن بعض هذه السرايا كانت موجهة ضد قوافل قريش إلا أن تحليل هؤلاء ليس له علاقة بالحقيقة ، فلم يرو عن رسول

الله ﷺ وعن أى مجاهد من المجاهدين وعامة الصحابة الذين اشتركوا فى هذه المهام أن هدف هذه المهام كان قافلة من القوافل ؛ ولأن رواتنا وكتاب الأخبار من أهلنا قد وضعوا أمام أعينهم وهم يكتبون خلفية مقاومة قريش فى مكة للرسول ومعارضتها للإسلام لهذا ظنوا – وظلوا يظنون – أن كل إجراءات رسول الله هذه كانت بالضرورة موجهة ضد قريش ، بينما لم يكن الأمر كذلك . ويفهم من دراسة وفحص هذه الروايات أن هدف معظم هذه المهمات ، وخاصة تلك التى أرسلت إلى مناطق القبائل العربية كان هدفا سياسيا تبليغيا ، فقد كان رسول الله ﷺ يريد أن يعقد معاهدة صداقة وتعاون مشترك مع القبائل العربية المجاورة ، وتم ذلك على عهده ﷺ ، وكما تذكر الروايات فقد عقدت معاهدات تعاون مشترك مع قبائل بنى حمزة وأسلم وغفار وغيرها . كل هذا حدث نتيجة لإرسال تلك المهمات الأول التى هدفت إلى تبليغ الإسلام أو إقامة علاقة سياسية بالمفهوم الحديث .

وكانت بعض هذه المهمات تهدف إلى جمع المعلومات والوقوف على الظروف الجغرافية الإقليمية مثلما يفهم من واقعة « نخلة » ، أما مهمة عسفان فقد كانت إجراءً حربيا خالصا ضد مهاجمين من مكة قاموا بالهجوم على مراعى المدينة ، وأصابوها فى المال والأنفس ، واضطر المسلمون إلى القيام بهذه المهمة . ويجب أن نذكر أن المنازل المختلفة حيث وقعت هذه المهمات الأولى كان بينها وبين طريق التجارة مسافة بعيدة ، كما كان قيام المسلمين الموكل إليهم هذه المهام يقع فى مناطق محددة ، ولمدة معينة ، ولم يكن هناك تصادم مع القوافل إلا ما يدعو لذلك ، بل لم يكن هناك صدام فى معظم الأحيان ، وماعدا سرية نخلة فإن جميع المهمات بدون جدل أو جدال – وكما يقول المستشرقون – عادت بدون أن تحقق هدفها ؛ فقد كان عدد الجنود المسلمين قليلا ، كما أن بعض الحقائق والقرائن توضح أن دوافع هذه المهمات لم يكن

اقتصاديا ، بل كان غير ذلك ، حتى سرية نخلة فقد كانت – طبقا لأوامر رسول الله ﷺ – لمعرفة الظروف ، والتعرف على أحوال المنطقة ، لا للإغارة والسلب ، ونظرا للظروف التى تغيرت فجأة إذ تم الهجوم على فصيلة من جند المسلمين مما اضطرهم إلى الاستيلاء على القافلة المكية ، إلا أن رسول الله ﷺ أظهر عدم رضاه عما حدث ، ولم يلمس بيده مال الغنيمة هذا حتى غزوة بدر .

أما المستشرقون فإنهم بما يحملون من خبث اتهموا الرسول الأكرم والمسلمين ، وخاصة مجاهدى سرية نخلة ، بأنهم قاتلوا فى الشهر الحرام ، وبهذا لم يحترموا قدسيته ، إلا أن القرآن الكريم والمصادر الإسلامية قد برأتهم من هذه التهمة التى يرددها المستشرقون .

وإذا كان أنصار المدينة قد فتحوا صدورهم لإخوتهم المهاجرين واستضافوهم فى بيوتهم ، وأشركوهم معهم فى أملاكهم وبممتلكاتهم وفى تجارتهم وزراعتهم عن طريق المؤاخاة . فمن أين تظهر قضية الغارة والإغارة ؟ ومن الثابت من رواياتنا وهى تلك الروايات التى اعترف بها الأعداء أيضا أن رسول الله ﷺ قد آخى حتى بين المهاجرين والأنصار فى أعقاب الهجرة مباشرة ونتيجة لهذه المؤاخاة فإن المسلم لم يصبح أخًا للمسلم فقط بل يحق له أن يرثه فى أملاكه فى حالة وفاته ، وبعدها – حين أثبت القرآن الكريم حق الوراثة برابطة الدم – لأن حالة المهاجرين المادية تحسنت ، ظلت هذه المؤاخاة قائمة أيضا إلا أنه لا وراثة فيها ، ومارغوليوث وهو من المستشرقين المعادين للإسلام لم يعترف فقط بالتضحيات العظيمة التى بذلها الأنصار ، بل اعترف أيضا بحقيقة الحالة الاقتصادية الطيبة للمهاجرين وكسب عيشهم عن طريق العمل بالتجارة والزراعة والصناعة وغيرها .

ويثبت من كل هذه الحقائق أن المهمات الأولى كانت تهدف فى المقام الأول

والأخير إلى هدف تبليغى دعوى وسياسى ، ولم يكن للعامل الاقتصادى أى دور وراءها . أما ما يثيره المستشرقون والمؤرخون الجدد من أن الدافع إليها كان دافعًا اقتصاديا فهو خطأ جسيم من أوله إلى آخره .

غزوة بدر

هناك وجهتا نظر فيما يتعلق بغزوة بدر ، الأولى تتعلق بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية ، والثانية تتعلق بأصحاب السيرة والسوانح . وتحليل جميع روايات المصادر المتعلقة بأصحاب وجهة النظر الثانية يدل على أن المهمة التى قادها رسول الله ﷺ مع مسلمى المدينة على القافلة المكية المتجهة إلى الشام والتى كانت تحمل بعض أموال قريش ، بقيادة أبى سفيان بن حرب الأموى . خرج إليها من المدينة المنورة (٣١٤) فدائى من بينهم (٨٣) من المهاجرين و (٢٣١) من الأنصار ، وحين وصلوا إلى بدر عرفوا أن قافلة أبى سفيان التجارية قد نجت ، وبعد أن سمعت قريش بخبر خروج المسلمين ، أعدت جيشا ضم حوالى ألف جندى تقريبا ، ووصل بالقرب من بدر ، واضطر المسلمون إلى الدخول فى الحرب التى انتهت بنصرهم فى النهاية .

ولكننا نعرف من الآيات الأولى لسورة الأنفال (آية ٥ – ٢٠) أن رسول الله ﷺ قبل خروجه من المدينة المنورة كان قد علم بقيام جيش قرشيى مكة قبلًا ، وطبقا للآيات القرآنية حين خرج رسول الله من المدينة مع المسلمين ، كانت هناك إمكانية لأن يلتقى ويصطدم مع القافلة العائدة من الشام ومع الجيش القرشى القادم من مكة ، وكانت جماعة من المسلمين تتوق إلى القتال وكانت جماعة أخرى تتمنى أن تلتحم وتصطدم مع القافلة التجارية القادمة من الشام ، وتتحاشى الاصطدام بجيش قريش ، لأن فى هذا خطرًا على أرواحها ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المسلك بقوله : ﴿ كأنَّما يسَاقُون إلى المَوْت ﴾[1] إلّا أن الله تعالى أراد أن يفصل بين الحق والباطل فى هذه

---

(١) ﴿ يُجَادِلُونَكَ فى الحق بعد ما تبين كأنَّما يُساقُون إلى الموت وهم ينظرون ﴾ الأنفال آية ٦ . المترجم .

الموقعة ، ولهذا نجت القافلة التجارية ، والتحم المسلمون بجيش قريش ، وصدق الوعد الإلهى ، وقد جاء التأييد الإلهى كما أوضحت كتب الأحاديث المتعددة ، البخارى ومسلم ومسند أحمد بن حنبل وغيرها ، وأيدته أيضًا بعض الروايات التاريخية .

والمستشرقون والمؤرخون الجدد الذين أسكرتهم نظرية الدوافع الاقتصادية ، قد غضوا النظر تماما عما ورد فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية فى هذا الصدد ، كما صرفوا النظر عن الروايات التاريخية التى تتعارض مع نظرياتهم ، والتى تؤيد النظرية القرآنية . ووجهة نظر المستشرقين والمؤرخين المخالفين للإسلام واضحة تماما ، إذ يقولون بأن الدافع الأساسى للغزوات والسرايا الإسلامية كان الغزو والإغارة والحصول على الغنائم ، ولهذا فمن المفهوم أنهم سوف ينصرفون تماما عن جميع الروايات والشواهد التى تتعارض مع نظريتهم . وفى الحقيقة فإن المشكلة هنا فى أولئك المؤرخين المسلمين الذين يعارضون – من جانب – نظرية الغزو والإغارة ، ومن ناحية أخرى يرون أن خطة إغارة المسلمين على قافلة قريش العائدة من الشام إنما كانت مقدمة لغزوة بدر ، فالاستدلالان يعارض كل منهما الآخر ، لهذا خرج بعض هؤلاء المستشرقين – بنظرية غريبة – وهى أن جميع المهمات الأولى التى خرجت قبل غزوة بدر كانت مخططة للخروج من أجل التصدى للقوافل التجارية المكية ، وأرادوا أن يثبتوا الدافع الفعلى فقالوا إن الهدف لم يكن الإغارة ، بل أراد الرسول ﷺ عن طريق هذا الأسلوب أن يؤثر على الاقتصاد المكى حتى يضطر أشراف قريش وأكابرها الذين ركبهم الغرور إلى عقد معاهدة أو مصالحة سياسية مع المسلمين .

لقد قام العلامة (شبلى النعمانى) بكتابة بحث عظيم عن غزوة بدر ، عرض فيه لما جاء فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية وجميع الروايات التاريخية ،

وحللها تحليلا صحيحا . وبعدها عرض لأسلوب الرسول ، وقدم تحليله مطابقا للروح الإسلامية ومطابقا للنظر التاريخى الصحيح وخرج (شبلى) بعد تحليله الصحيح لأحداث غزوة بدر ، نتيجة لدعم آرائه بالدلائل القاطعة والبراهين الحتمية ، فقال : إن الرسول ﷺ حين خرج مع المسلمين من المدينة المنورة ، كانت فى ذهنه وأمامه خطة واحدة وهى الالتحام مع جيش مكة ، بينما كان لقاء قافلة قريش التجارية أمرًا ممكنًا ، إلا أنه ﷺ لم تكن لديه نية أبدًا فى نهب القافلة أو الإغارة عليها ؛ إذ إن الظروف التاريخية الثابتة تدل على أن المحرك والدافع الأساسى لغزوة بدر كان الجهاد الإسلامى .

أما أولئك الذين حاولوا أن يجعلوا هدفها اقتصاديا ، فهم يؤيدون دون فهم أو تفكير نظرية المؤرخين المغرضين والمستشرقين أعداء الإسلام فى هذا الشأن وهم يحاولون أن يثبتوا أنّ جميع الغزوات الإسلامية والسرايا الإسلامية كانت تهدف إلى الغزو والسلب ، وأن هدفها كان اقتصاديا بحتًا .

غزوات النبى

بعد غزوة بدر ، لم يتجرأ أىٌّ من المؤرخين المغرضين على البحث عما أسموه بالدوافع الاقتصادية لأى غزوة أو سرية من الغزوات التى وقعت مع قريش مكة ؛ لأن جميع الغزوات والسرايا التى وقعت بعد ذلك كانت منبثقة عن مجرد تصادم أو تلاحم سياسى ، مع أن بعض المؤرخين قد أثبتوا أنها غزوات سياسية فقط . إلا أننا نقرُّ بأنها بأى صورة من الصور كانت مظهرًا من مظاهر الجهاد الإسلامى . ولو كان الرسول ﷺ يضع نصب عينيه أموال الغنائم هدفا ، فقد كان فتح مكة وغزوة حنين والطائف من أطيب الفرص التى واتته ؛ فأثناء فتح مكة كانت جميع ثروات أغنياء قريش أمامه يستطيع أن يستولى عليها ، ولو أراد المسلمون لانتقموا مما حاق بهم من ظلم على يد قريش مكة ، ولنهبوا ثرواتهم ولكن النبى ﷺ عفا عن أهل مكة كلهم .

وفى غزوة حنين استولى الرسول ﷺ على الأموال التى أخذت من الأعداء فقط فى ميدان القتال ، ولم يهجم على قرى الأعداء وأهلها ولم يسلبهم مالهم ، وكان من الممكن أن يحصل على الكثير من الأموال إذا ما قبل الأموال التى يفتدى بها أسرى حنين أنفسم ، إلا أنه أطلق سراحهم أيضا بلا فدية ؛ لأنهم كانوا من القبيلة التى أرضع فيها ، وما جاء ضمن نظرية التصادم المسلح مع قريش ومن قبلها الإغارة على القوافل ، إنما هو أمر عجيب وغريب ، إذ ينال المسلمون أقل الغنائم مقابل مواجهة أعداء كثيرين . وإذا حللنا جيدًا بإيمان وبحق فى ضوء النظر التاريخى الصحيح جميع الغزوات النبوية فسوف نعرف أن أول هدف من أهداف رسول الله ﷺ كان إعلاء كلمة الله ، والجهاد فى سبيل الله ، وأنّ نظريات الدوافع الاقتصادية ليست فقط نظرية خاطئة ، بل إن ترويجها إنما هو فى أساسه راجع إلى سوء نية وخبث القائلين بها .!!

العلاقات مع اليهود : الروابط الفكرية

عرض معظم المستشرقين والكثير من المؤرخين الجدد علاقات الرسول ﷺ مع يهود الحجاز بطريقة خاطئة تماما ، وحاولوا بكل الطرق مسخ التاريخ الإسلامى . وكانت نقطة بداية هذه العلاقات بعد الهجرة النبوية حين دعا رسول الله ﷺ يهود المدينة إلى قبول الإسلام . وهو طبقا لتلك الروايات – ما كان ينتظره من مدة طويلة ، وماعدا بعض الأشخاص الصالحين من أصحاب النوايا الطيبة ، فإن جميع يهود المدينة رفضوا دعوته ، نظرًا لما كانوا عليه من غرور وكبر وعصبية دينية ، وشعورهم بالتفوق الاقتصادى والاجتماعى . وقد قسم المستشرقون العلاقات النبوية مع يهود المدينة إلى قسمين :

فى القسم الأول ذكروا تلك المساعى – التى هى فى رأيهم – كانت تهدف من جانب النبى إلى أن يُلبس الإسلام ثوب اليهودية ، وأطلقوا على هذه الفترة

« عصر المصالحة » .

والفترة الثانية هى التى أطلقوا عليها « عصر المعارضة » أو المواجهة ، حين يئس النبى من دخولهم فى الإسلام ، فلم يعمد فقط إلى نقد نظامهم الاجتماعى والاقتصادى والدينى ، بل اتخذ ضدهم إجراءات عسكرية ، حتى تمكن من قمعهم وطردهم ، واضطر المستشرقون فى عرضهم لهذين القسمين من حياة الرسول أن يحللوا الأمور بتفصيل جعلهم يثيرون الكثير من العقول ويصيبونها بالاضطراب .

لقد تغنى المستشرقون منذ فترة طويلة وبعيدة بأن رسول الله كان يأمل أن تدخل قبائل اليهود فى الإسلام بعد الهجرة ، وحتى يقربهم إلى الإسلام ويلين قلوبهم بدأ فى صياغة الإسلام صياغة تتطابق مع الدين اليهودى والشريعة اليهودية ، وهكذا تبعهم فى الاحتفال بصوم يوم عاشوراء ، ثم كان يوم الجمعة ، وجَعَل بيت المقدس قبلة المسلمين ، وأجاز ذبيحتهم وحلل الزواج من نسائهم ، ولكن حين رفض اليهود جميع محاولاته هذه الرامية للصلح ، نظرا لعجرفتهم وغرورهم ، وبدأوا فى نقده ونقد دينه نقدا عقليا ونقليا ، حينئذ ترك الرسول أسلوب المصالحة معهم ، وبدأ يُعارضهم وينقدهم نقدا عقليا مقرونا بمواجهتهم بحزم وبشدة وبصورة عملية .

وفيما يتعلق بالنقد العقلى فقد أوضح ما لدى اليهود من إفراط وتفريط فى الدين ، وتحريفهم وتبديلهم للتوراة ، والتحايل على الأحكام الإلهية ، وانغماسهم فى المساوئ الاجتماعية ، وتجاوزهم للحدود الإلهية فى المعاملات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من أمور واردة فى القرآن الكريم .

وفى بداية فترة المواجهة بدلا من صوم يوم عاشوراء فرض صوم رمضان ، وبدلا من الاتجاه إلى بيت المقدس أصبحت الكعبة هى قبلة المسلمين .

ولم يصدر عن المؤرخين أى شىء آخر فى الأمور الأخرى الخاصة

بالمصالحة ، فلم يكتبوا برفضها كما لم يكتبوا بتصديقها .

ويعرف حتى طلاب السنوات الأول من دارسى التاريخ الإسلامى أن تحويل قبلة المسلمين فى الصلوات الخمس عن بيت المقدس ، قد تم قبل عدة سنوات من الهجرة فى وقت لم تكن هناك لقضية إرضاء اليهود أو مهادنتهم مكان ، ولم تكن فكرة الهجرة إلى المدينة حتى قد وردت على الخيال . ثم إن صوم عاشوراء كان نفلا وكان بالنسبة للمسلمين سنة نبوية ، وذلك بعد إقرار فرضية صوم رمضان ، ولايزال حتى اليوم سنة يقيمها المسلمون ، ثم أى مصلحة تلك التى اقتضت فرض صيام « ثلاثين » يوما [شهرًا] بدلا من صيام يوم واحد ؟! لو أن رسول الله ﷺ اضطر لمخالفة الدين اليهودى ، وطريقة اليهود وأسلوبهم لحرّم ذبيحتهم ولحرم الزواج من نسائهم وحرم صوم عاشوراء ... وهى الأمور التى لاتزال مباحة حتى يومنا هذا . وقد أقر صلاة الجمعة كما هى وكما كانت عليه دون تغيير .

إن محاولة المستشرقين وأعداء الإسلام من المؤرخين إعطاء بيانات خاطئة لمسخ التاريخ هو فى الأصل دليل واضح وبيان فاضح على عداوتهم الشديدة وتعصبهم الدينى ضد الإسلام ورسول الإسلام ، ونظرتهم الخاطئة هذه إنما يرجع سببها إلى اعتبار الإسلام والمسيحية واليهودية أديانا منفصلة عن بعضها البعض ، ويتعارض بعضها مع البعض ، بينما القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وجميع الروايات الإسلامية توضح أنه ليس فقط الأديان الثلاثة بل جميع الأديان التى جاء بها جملة الأنبياء الكرام كانت تتفق مع الإسلام ، وقام علماؤها ورهبانها بتحريف التعليمات الإلهية الأصلية ، فحرفوا الأديان ومسخوها وانحرفوا بها عن جادة الطريق ، ومن الواضح أن الإسلام يعترف بالدين اليهودى والمسيحى قبل تحريفهما ؛ لأنهما ينبعان من منبع واحد ، وهناك بالضرورة اشتراك فى الأصول والعقائد ، وهناك ولا شك أيضا اختلاف ممكن

فى الشريعة والقانون ، إذ كانا يتطابقان بالضرورة مع ظروف ومستلزمات الحالات والزمان وضرورات كل أمة ، والمستشرقون قد أخطأوا ، وجانبهم الصواب وهم يقسمون سياسة رسول الله ﷺ مع يهود المدينة إلى فترتين مختلفتين ، طبقا لغرضهم الدفين وهوى نفسهم الكمين ، والتاريخ يثبت بصورة قاطعة أن سياسته ﷺ مع القبائل اليهودية كانت من البداية وحتى النهاية تمضى على وتيرة واحدة .

تشكيل المجتمع الإسلامى : المؤاخاة

يلزمنا لفهم النوعية الصحيحة للعلاقات السياسية للدولة الإسلامية مع يهود المدينة أن نقف جيدا على المعلومات الأولية والضرورية المتعلقة بتشكيل المجتمع الإسلامى ، وبناء وتطوير الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة ، وهى تلك الأمور التى كان ليهود المدينة صلة قريبة منها وعلاقة بها .

بعد الهجرة مباشرة قام ﷺ عن طريق المؤاخاة بإقامة علاقة محكمة من الأخوة وعلاقة قوية من المحبة بين مهاجرى مكة وأنصار المدينة ، فأوجد بين هاتين الطبقتين من المسلمين فكرا مستقلا وانسجامًا وتناسقًا اجتماعيًّا وسياسيا واقتصاديا ، وقضى هذا الأمر على جميع ما من شأنه أن يوجد تنافرًا داخليا بين المجتمع أو يوجد بصيصا لدلالة « أنا وأنت » داخل المجتمع المسلم الذى قام على دلالة « نحن » .

وكانت هذه أول خطوة عملية وربما أعظم عمل تطبيقى لقيام المجتمع الإسلامى الصحيح . لقد كان المجتمع منظما تنظيما مستقلا وثابتا ، وُضع أساسه بناء على حكم القرآن الكريم ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ . وعن طريق هذا الحكم . أبعد الإسلام امتيازات التفريق القبائلى والاجتماعى بنجاح كبير ، ونظّم المجتمع الإسلامى على أساس الإسلام فقط .

ويذكر المستشرق « مونتجمرى وات » ومن على شاكلته هذه المؤاخاة بطريقة عارضة بلا دليل أو شهادة . وهم يعتبرونها تدبيرا عسكريا أراد به ﷺ أن يوجد بين المهاجرين والأنصار انسجاما عسكريا فى ميدان القتال .

ولرفض هذه النظرية نسوق دليلا واحدا ملخصه أنه لما كان هناك اختلاف فى العدد بين مجاهدى المهاجرين ومجاهدى الأنصار ، فكيف قام هذا الانسجام العسكرى ؟. فى المهمات الأول وطبقا للروايات المشهورة فإن المهاجرين فقط دون غيرهم هم الذين اشتركوا فيها . فكيف يمكن أن نقبل هذه النظرية التى يروجها المستشرقون ، بينما المؤاخاة قد حدثت قبل ذلك بكثير ، ثم إنه فى الوقت الذى تمت فيه المؤاخاة لم تكن فكرة الحرب وميدان القتال قد ظهرت إلى الوجود .

وعلاوة على ذلك يفهم من الروايات أن المؤاخاة مع المهاجرين القادمين حتى فتح مكة ، ظلت قائمة مع الأنصار ، بل يمكن أن نجد لها أمثلة بعد فتح مكة .

وعلى كل حال يتضح من المصادر أن المؤاخاة كانت محاولة لإيجاد مجتمع مستقل متجانس كانت فيه قضية حق الوراثة قضية عرضية ، أما بقية النظام فقد ظل موجودا حتى النهاية ، وهو النظام الذى بُنى عليه المجتمع الإسلامى وتطور وارتقى بل وكان وجوده منحصرا عليه تماما .

الصحيفة النبوية :

عن طريق المؤاخاة ، وبعد أن حدث تناسق وتجانس وانسجام بين طبقتى المسلمين داخل المجتمع ، كان أمام رسول الله ﷺ قضية هامة هى توثيق العلاقات بين طبقات المجتمع الأخرى غير المسلمة وبخاصة قبائل اليهود . فهذه الطبقات بصفتها غير مسلمة لم تكن تمثل ركنا من أركان المجتمع الإسلامى

الذى يقوم أساسه على الدين الإسلامى .

ولهذا قام رسول الله ﷺ بعقد معاهدة تعاون وصداقة مع كل قبيلة على حدة ، وبعدها وعن طريق معاهدة جماعية – ذكر متنها ابن إسحاق فى سيرته الشهيرة – أوجد الرسول بين مسلمى المدينة كلهم وغيرهم من الطبقات الأخرى غير المسلمة وحدة سياسية مشتركة ، وتعاونا وانسجاما ، وهذا الأمر أوجد بدوره انسجاما واتحادا سياسيا بين طبقات المسلمين وغير المسلمين فى المدينة كلها .

وقد عرفت هذه المعاهدة فى المصادر باسم « صحيفة الرسول » وأطلق عليها المستشرقون اسم « دستور المدينة » وطبقا لقول « فينسنك » و « وات » وأشباههما من المستشرقين فإن هذه المعاهدة النبوية شملت ٤٧٠ مادة يلقى بعضها الضوء على العلاقات بين المسلمين واليهود كما أن بعضها يتعلق بالروابط بين اليهود والدولة الإسلامية ، ففى المادة الأولى والثانية إعلان بأن المسلمين أمة واليهود أمة ، وهذا استدلال عجيب جدا أن يقدم « ولهاوزن » و « مونتجمرى وات » وغيرهما باعتبار الدين والمذهب أساس المجتمع الإسلامى ومن ناحية أخرى يعتبرون أن اليهود [وليس فقط اليهود] بل الطبقات الأخرى غير المسلمة أعضاء داخل « الأمة الإسلامية » ، وهو الأمر الذى لم تثبت أبدا صحته بأى شكل من الأشكال خلال التاريخ الإسلامى ، ثم يعترف المستشرقون أيضا أنه طبقا لدستور المدينة فإن اليهود وغيرهم من غير المسلمين لم يحصلوا على حقوق تتساوى مع حقوق المسلمين . وفى عدة مواد من مواد المعاهدة أُقرت الأصول القديمة التى كانت تتبعها كل قبيلة طبقا لدستورها القديم ، فيما يتعلق بالدية والدم ، وتتحمل القبيلة كلها مسئولية أعمالها ومسئولية أعمال أفرادها ، وكان ينبغى على جميع الفئات المشتركة فى هذه الصحيفة أن تعتبر المدينة حرمًا ، وعليها أن تتحمل مسئولية الدفاع عنها ، ودفع

النفقات الدفاعية طبقا للحصة المقررة عليها ، إذا ما تعرضت المدينة للهجوم ، وإذا ماوقع خلاف أو نزاع فى أى معاملة من المعاملات ، فيلزم الرجوع إلى رسول الله ﷺ ، وعلى الجميع إطاعة وتنفيذ حكمه وقراره ، ويجب ألا يخرج أحد بدون إذنه إلى حرب أو جدال ، وألا يلجأ أحد إلى أعداء الإسلام ، وبخاصة قريش ، وألا يرتكب أحد أى عمل من شأنه أن يكون معاديا للمسلمين ، وأن يكون الجميع أوفياء بأى حال من الأحوال للدولة الإسلامية .

المعارك مع يهود المدينة :

يجب تحليل العلاقات السياسية بين الدولة الإسلامية ويهود المدينة على ضوء الصحيفة النبوية .

فبعد غزوة بدر قام يهود بنى قينقاع فلم يطعنوا فى حق رسول الله والمسلمين فقط ، بل أثاروا القتال والنزاع والفتن ، وهو ما يتنافى صراحة والمعاهدة ، وفى زمانهم اعتدى أحد اليهود على امرأة مسلمة فى سوق الصرافة الذى كانوا يمتلكونه ويعملون به ، فقام مسلم غيور فضرب المجرم ، فقام اليهود على الفور وقتلوا هذا الشاب المسلم ، وحاول رسول الله ﷺ رد بنى قينقاع عن غيِّهم هذا ، وعن أفعالهم الشائنة تلك ، وذكّرهم بشروط المعاهدة ، إلا أنهم لم يُظهروا فقط استعدادهم للقتال بل قاموا بنقض المعاهدة تماما ، وكانت النتيجة القيام بعمل عسكرى ضدهم . فقاموا باللجوء إلى حصونهم وحوصروا فيها ، وحين دبَّ اليأس فى قلوبهم ، وبعد خمسة عشر يوما ، أعلنوا الاستسلام دون شرط ، فتم إجلاؤهم عن وطنهم ، وحملوا معهم جميع أمتعتهم وأموالهم وأجناس الطعام والمواشى ، دون الممتلكات غير المنقولة والسلاح ، وبعد جلائهم عن الوطن قامت عدة قبائل يهودية بتجديد المعاهدة مرة أخرى ، إلا أنه بعد غزوة أحد عمد بنو النضير إلى مساعدة قادة جند وغزاة قريش أعداء المسلمين

ودفعهم غرورهم إلى التآمر على الدولة الإسلامية الناشئة ، تلك التى تعاهدوا على أن يكونوا أوفياء لها ، وأن يتحملوا مسئولية الدفاع عنها ، وطبقا للمعاهدة ، وحين ذهب الرسول إليهم للحصول على النصيب الواجب دفعه فى دية قتل بنى عامر ، تآمر اليهود عليه وحاولوا قتله ﷺ ، وتم عقابهم عن غدرهم هذا بنفيهم ، وحصلوا على جميع التسهيلات التى حصل عليها من قبلهم بنو قينقاع ، حتى إنه سمح لهم بالحصول على فوائد قروضهم التى كانت لدى المسلمين ، وحصلوا عليها كاملة ، وطبقا لأقوال المؤرخين خرج هؤلاء اليهود من ديارهم معززين مكرمين لدرجة أن نساءهم قمن بوضع ما يمتلكن من ذهب للزينة على أجسادهن .

ومن الملاحظ أن قضية بنى قريظة كانت مختلفة إلى حد ما ، فقد نقضوا المعاهدة فى وقت حرج ودقيق ، كان المسلمون فيه بين الحياة والموت وهو ما حدث فى الأوقات الحرجة من غزوة الخندق حين أرادوا مساعدة الأعداء بكشف جناح المسلمين ، ولم تنجح مؤامرتهم بتوفيق من الله ، وبعد عودة جيوش الأحزاب ، اتخذت ضدهم إجراءات عسكرية ، وفى النهاية اضطروا إلى إلقاء السلاح والتسليم دون شروط ، وأصدر حكما ضدهم رجل انتخبوه هم هو سعد بن معاذ الأوسى ، الذى حكم عليهم طبقا لما جاء فى التوراة ، وهو قتل جميع الرجال العاقلين البالغين ، وأن تصبح زوجاتهم إماءً وأطفالهم غلمانًا ، وقد أثبت باحثان مسلمان هما (و . ن . عرفات) و (بركات أحمد) أن جميع بنى قريظة لم يقتلوا ، كما أن أولادهم ونساءهم لم يصبحوا غلمانا وإماءً ، بل إن رؤساءهم فقط اعتبروا مجرمى حرب فقتلوا ، وتم العفو عن بقيتهم ، وردت إليهم أموالهم ، كما توضح مصادرنا القديمة أيضا أن عددا من أسر بنى قريظة وأفرادها تم العفو عنهم بوساطة بعض المسلمين ، على شرط أن يتبع اليهود سلوكا يتسم بالوفاء ، وردت إليهم أملاكهم وممتلكاتهم جميعا .

ويتضح من تحليل جميع الروايات أن الدولة الإسلامية قامت باتخاذ إجراءات عسكرية ضد هذه القبائل اليهودية الثلاث نظرا لأسباب سياسية كانت مسئوليتها كاملة تقع على كاهل القبائل المذكورة ، فقد قاموا بمعارضة المعاهدة ونقضها قصدًا وعمدًا والعمل خلافًا لما جاء فى موادها ، وخلافا لما وقّعوا عليه وأقروه ، كما قاموا بارتكاب غدر واضح فاضح ضد الدولة التى تعهدوا رسميا بمسئولية الدفاع عنها وحمايتها ، وقد عوقبوا طبقا لجرائمهم التى ارتكبوها وليس لأنهم يدينون باليهودية ، ويتضح من المصادر – وهو ما يعترف به أيضا مونتجمرى وات ومن على شاكلته من المستشرقين – أنه رغم هذه الإجراءات فقد بقيت فى المدينة المنورة أكثر من عشرين أسرة يهودية ، ولم يثبت أبدا ضدها أى إجراء سياسى فى العهد النبوى ، وفى عهد الخلافة بطولها ، فلم تُسلب أموالهم ولا ثرواتهم ، ولم يُستول على أملاكهم ولا على ممتلكاتهم ، ولو كان هدف الرسول ﷺ هو الحصول على الأموال والغنائم لما سمح رسول الله بأن تأخذ القبائل التى نفاها أموالها ومنقولاتها وأمتعتها معها ، ولما أعاد لهم قروضهم التى كانت لدى المسلمين .

وصحيح أن الأهمية الاقتصادية للمتلكات غير المنقولة أكثر ، وفائدتها أعم ، إلا أن الحقيقة أيضا هى أن الأموال والأمتعة والأجناس التى حملها اليهود معهم كان من الممكن أن تمثل من ناحية أخرى عونا ومددا عظيما للمسلمين داخل دولتهم .

إن المستشرقين عمدوا إلى تضخيم الإجراءات العسكرية للدولة الإسلامية ضد اليهود إلا أن بعضهم بدأ الآن تدريجيا فى الاعتراف بالحق ، رغم أن هذا الاعتراف يحمل بين طياته السمّ إلى حد ما .

يجب أن ننظر دائما إلى علاقات يهود المدينة فى ضوء خلفية تشكيل الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى ، وإلا فلن نحللها وننقدها بطريقة صحيحة .

تشكيل الدولة الإسلامية :

عرض بعض المستشرقين وعلى رأسهم (مونتجمرى وات) نظرية فحواها أن النظام السياسى الذى أقامه رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة قد قام على أسس قبلية ، وطبقا لرأيه ، فقد كان هناك وفاق بين مختلف القبائل والبطون فى المدينة المنورة ، وكان هذا الوفاق يضم تقريبا تسع قبائل كبيرة ، ويمكن القول بأنها كانت تمثل تسع وحدات سياسية من بينها وحدة تضم المهاجرين ، وكان رسول الله ﷺ رئيسًا للمهاجرين فقط ، وبالإضافة إليه كان هناك ثمانية رؤساء سياسيين للقبائل كانوا فى جميع الأشكال متساويين معه فى الرتبة والمكانة ، ولم يكن له عليهم أى أفضلية .

ويحاول هؤلاء المستشرقون فى النهاية أن يثبتوا أنه لم يكن حاكما للمدينة ، كما أنه لم تكن هناك دولة إسلامية بالمدينة تحكم جميع القبائل الأخرى .

وهذه نظرية خاطئة من الناحية التاريخية ودلائلها باطلة ، ففى بيعة العقبة الثانية اعترف مسلمو المدينة برسول الله زعيما وقائدا مثلما اعترف به مسلمو مكة بعد الهجرة ، ولم تنته سيادته ﷺ إلى حد السيادة على المهاجرين فقط ، بل امتدت لتشمل قبيلتى الأنصار أيضا ، ويمكن القول بأنه بعد الهجرة مباشرة كان ﷺ هو شيخ ورئيس جميع طبقات المسلمين بلا استثناء وبعد دستور المدينة أصبح عليه الصلاة والسلام هو القائد السياسى للمدينة بأكملها بما فيها من يهود وغيرهم من غير المسلمين ، ورغم أن اليهود لم يعترفوا به كرسول فإنهم بانضمامهم إلى المعاهدة النبوية أو الصحيفة النبوية سلموا بزعامته السياسية ، تلك الزعامة التى جعلتهم يعترفون بالحيثية القانونية للإجراءات العسكرية التى اتخذت ضدهم .

لقد كان ﷺ هو الحاكم الأعلى للمدينة والقائد الدينى والسياسى للجميع . اعترف به الجميع بعد الهجرة مباشرة وحتى غزوة الخندق كانت القبائل

الموجودة فى أطراف ونواحى المدينة قد اعترفت بسيادته ، وقد كان منبع سيادته وقيادته رسالته ونبوته ، والمستشرقون أساسا لا يريدون التسليم فى كتاباتهم بهذه المكانة الأساسية لرسول الله ﷺ لأنها مكانة دينية .

يهود خيبر :

كان يهود خيبر من بين القاطنين خارج المدينة يحيكون المؤامرات ضد الدولة الإسلامية ، وكان من أهم العناصر المتآمرة يهود بنى نضير الذين نفوا من ديارهم ، وخاصة شيوخهم ورؤساءهم الذين كانت نيران الانتقام والحسد تعتلج فى داخلهم ، فقد لعبت أيديهم دورا فى غزوة الأحزاب ، وفى تأليب القبائل العربية على المدينة ، وفى دفع بنى قريظة إلى الغدر ، وبعد صلح الحديبية وحين اطمأن رسول الله ﷺ إلى جانب قريش فى مكة رأى أن أول عمل يجب أن يقوم به هو أن يسد باب مؤامرات يهود خيبر ، وقام جيش المسلمين الذى ضم مجاهدى غزوة الحديبية بمحاصرة خيبر وكان بها عدة قلاع ، تم حصار بعضها ولم تصمد للحصار ، فسقطت واحدة بعد الأخرى وحين وضح لليهود أنهم سيهزمون عرضوا الصلح فقبله الرسول ، وتم على أن يُقدِّم زراع اليهود نصف نتاج أراضيهم كل موسم بمثابة خراج ، وبعدها تم عقد معاهدات أخرى مع يهود خيبر الآخرين الذين يعيشون فى قرى فدك وتيماء ووادى القرى على نفس الشروط .

وصفحات التاريخ الإسلامى شاهد عدل وحكم فصل على أن المسلمين لم يغدروا وصانوا شروط معاهداتهم بكل أمانة وإنصاف وخوف من الله ، ويشهد على ذلك الأعداء الذين هزموا ، يشهدون على أصول العدل والإنصاف الإسلامى ، وعلى سلوك المسلمين السامى ، وما اتبعه المسلمون مع أهل خيبر ونواحيها من القرى إنما يثبت بذاته أن الإجراءات العسكرية التى نفذت ضد هذه المناطق لم تكن وراءها أية عوامل أو محركات اقتصادية بل كان هدفها

الأساسى الجهاد الإسلامى الذى تم به رفع كلمة الله وتقوية الإسلام وصيانة الأمة الإسلامية والحفاظ على الدولة الإسلامية .

والجيش الإسلامى لم يكن كغيره من الجيوش يعمد إلى السلب أو النهب أو القتل أو الدمار ، فلم يكن ليتعرض إلا للسلاح ولأموال الغنيمة التى يحصل عليها فى ميدان القتال .

إن القبائل اليهودية التى سلكت مع الدولة الإسلامية سلوكا طيبا سليما ، ولم تلجأ إلى أسلوب التآمر أو الخداع ولم ترفع فى وجه الدولة الإسلامية السلاح ، هؤلاء لم يتخذ المسلمون ضدهم أى إجراء عسكرى ، ولقد كان الإجراء العسكرى الذى اتخذه المسلمون ضد خيبر والقرى المجاورة لها إجراء اضطر إليه المسلمون حتى يقتلعوا جذور المؤامرات والفتنة والفساد .

الخطّ السياسى للعلاقات مع غير المسلمين :

يتضح من تحليل الخط السياسى للدولة الإسلامية مع الفئات غير المسلمة أن الخط السياسى الذى اتخذه الرسول بعد الهجرة كان يهدف إلى دعوة القبائل والبطون غير المسلمة إلى الإسلام ، فإن امتنعوا عن قبول الإسلام عقد معهم معاهدة صلح وتعاون أو على الأقل عدم انحياز .

وهكذا تم عقد معاهدات من هذا القبيل مع القبائل المجاورة للمدينة المنورة ، وبخاصة القبائل الغربية مثل مزينة ، جهينة ، كنانة وغيرها ، وبالتدريج وفى فترة بسيطة دخلت هذه القبائل فى الإسلام .

وقبل أن تنجح هذه التدابير والخطط التى وضعها رسول الله ﷺ نجاحا كاملا بدأت سلسلة الغزوات مع قريش مكة ، وكان من نتيجة ذلك أن بعض القبائل التى ناصبت الإسلام العداء انتهجت نهجا يهدف إلى التآمر على الدولة الإسلامية وقتالها واضطر رسول الله ﷺ إلى أن يعلن الجهاد ضد جميع هذه العناصر المعادية ، وأخضع كثيرا من تلك القبائل بهزيمتها ، إلا أن الأسلوب

الذى اتبعه معها كان قائما على العدل والإنصاف ، فالقبيلة أو الجماعة التى طلبت الصلح ، أجيبت إلى طلبها ، ولكن حين كان الأمر يقتضى إقامة وحدة سياسية للجزيرة العربية كلها ؛ لأنه بدون هذه الوحدة لا يمكن للدولة الإسلامية أن تبقى ، ولا يمكن أن تكتمل الفريضة الإلهية الرامية إلى إعلاء كلمة الله ، حينئذ أمر رسول الله ﷺ أن يطالب جميع السكان العرب بالموافقة على أحد مطلبين : إما أن يقبلوا الإسلام ، ويصبحوا بذلك من مواطنى الدولة الإسلامية بصورة كاملة فيؤدون الفرائض الإسلامية كاملة بما فيها الأحكام التى تخص المال أى الزكاة والصدقات ، وإما أن يعترفوا بالتفوق السياسى للدولة الإسلامية إن أرادوا البقاء على دينهم ، وعليهم أن يخضعوا لها ، ويكون ضمان هذا الوفاء هو دفع الجزية السنوية وفى مقابل دفع الجزية تكون على الدولة الإسلامية مسئولية حماية أرواحهم وأموالهم وعزتهم وكرامتهم ، ويحصلون بذلك على مكانتهم فى المجتمع بصفتهم من « أهل الذمة » ويكون لهم حقوقهم وعليهم واجباتهم التى حددها الإسلام ، ومن خلال هذه الخلفية ، ومن خلال تحليلنا لجميع الغزوات والسرايا النبوية تحليلا كاملا نعرف أن المسلمين قد رفعوا السيف فى وجوه تلك العناصر التى أثارت الفتنة والفساد أو كانت عاملا من عوامل إثارة الفتنة والفساد ، وكانت تهدف إلى القضاء على الدولة الإسلامية ، على أن الدولة الإسلامية قد اتخذت من المصالحة أسلوبا لها مع جميع الفئات التى كانت تدعو للمصالحة ، وتريد الحياة فى أمن وسلام .

وفيما يتعلق بالحصول على الفوائد الاقتصادية وأموال الغنيمة فإن التاريخ يثبت أنها لم تكن هى الدافع ، ولم تكن هى المحرك ، ولم تكن هى الهدف بل كان كل هذا من ثمار الجهاد الإسلامى ، وإذا ما حللنا جميع أموال الغنيمة التى تم الحصول عليها أثناء الغزوات والسرايا النبوية فإن نصيب حياة المسلمين الاقتصادية فى المدينة كان اثنين بالمائة (٢٪) فقط ، أما الباقى فقد كان من نصيب الدولة للحفاظ على الأمن ، لقد كان الهدف الأساسى لجميع تلك الغزوات والسرايا هو الجهاد الإسلامى وهو ما يمكن أن تجد له مئات الأمثلة التى قدمها لنا القرآن الكريم وقدمتها لنا الأحاديث النبوية ، وقدمها لنا التاريخ الإسلامى .!!

الرسالة العالمية :

مع أن المستشرقين وبعض المؤرخين الجدد يدعون أن رسول الله ﷺ كان رسولا للعرب دون غيرهم ، وأن الرسالة التى حملها كانت قاصرة على منطقته التى عاش فيها ، بل كانت وقفًا أيضا على زمانه هو ، وأكثر من هذا فإنهم يدعون بدعوى عجيبة وغريبة وهى أنه لا شرف له فى المجىء بهذا « الانقلاب » أو « الثورة الإسلامية »[1] لأن المجتمع العربى آنذاك كان متعطشا لثورة اجتماعية وحركة إصلاحية أخلاقية ، وحين وجد هذا المجتمع إمكانات قدوم مثل هذه الثورة الاجتماعية والأخلاقية فى شكل الإسلام خطا خطوة للأمام فرحب أفراده به .

وهذا الادعاء بشطريه لا يوجد فيه تناقض فقط ، بل إنه لا يقوم على محك التحليل والنقد التاريخى وسوف نقوم بتحليله بشطريه .

من بين مستشرقى العصر الحديث المشهورين « مونتجمرى وات » وهو من المتعاطفين مع التاريخ الإسلامى ، إلا أن إعجابه بالإسلام لا يمنعه من أن يقدم من خلال كتاباته الاستعراضية تلك النظرية الخاطئة فى حق الرسالة العالمية والنبوة العالمية لرسول الله بعد بحث وكد وجهد جهيد ، وهو يدعى أن النبى ﷺ بعد تشريفه للمدينة المنورة لم يعرض الإسلام على يهود المدينة المقدسة لمدة طويلة و لم يقل للفئات الأخرى من غير المسلمين أن يدخلوا فى الإسلام ، فلقد كانت رغبته وكان هدفه فقط هو أن يعترفوا به ، كواحد من أنبياء الله « حتى يجد لنفسه شهادة تصديق » بين العرب على قبول رسالته ، إلا أنهم لم يفعلوا هذا ، وهكذا وبعد مدة كافية حين عرض عليهم الدعوة إلى الإسلام ، فرفض اليهود قائلين له : إن الإسلام هو دين العرب فقط ، وليس لبقية الفئات والجماعات ؛ لأنه ليس دينا عالميا ، وحتى يرد على استدلال اليهود هذا عرض عليهم تصور الدين الإبراهيمى ، قائلا بأن الإسلام الذى جاء به والدين الذى يدعو إليه هو فى الأصل الدين الحقيقى لأبى الأنبياء والجد الأكبر للعرب

---

(١) ليس الإسلام انقلابًا ولا ثورة بل دعوة ونبوة وإنما استعمل المؤلف مصطلحات المستشرقين فقط تهكما بهم !!

واليهود ، إبراهيم عليه السلام ، وهو الدين الذى يجب أن تقبله البشرية جمعاء ، بما فيهم اليهود والنصارى الذين ابتعدوا عن الدين الأصلى لإبراهيم عليه السلام ، وقد حاول المستشرق المذكور بكل جد وجهد أن يثبت أن السور والآيات المكية لا توجد فيها تصورات لدين إبراهيم ، إلا أن ذكر إبراهيم ودين إبراهيم قد وردا بكثرة فى السور والآيات المدنية ، وبسرعة بعد ظهور الاختلاف الفكرى والعملى مع اليهود ، وكأن ربط الإسلام بدين إبراهيم لم يكن لمجرد أن اليهود والنصارى عارضوا الإسلام .

وقد واجه « مونتجمرى وات » ومن هم على شاكلته مثل « ريتشارد بيل » وغيره ، صعوبة فى أن يثبتوا مزاعمهم وأفكارهم ، فصرفوا النظر تماما لا عن الروايات الإسلامية فقط بل عن روايات وآيات الكتاب المقدس أيضا ، وقاموا بتأويلها تأويلات عجيبة ، ولابد أن فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية والروايات الجاهلية وشواهد التاريخ الإسلامى ، مايثبت بصورة حتمية أن العرب قبل ظهور الإسلام لم يعتبروا أنفسهم من أولاد إبراهيم فقط ، بل كانوا يعتبرون أنفسهم أتباع دينه ومذهبه .

وأكثر من هذا هو تسليم بعض المستشرقين بالحقيقة القائلة بأن اليهود إنما عارضوا رسول الله لمجرد شعورهم بالتفوق والتمييز الجنسى وشعورهم بالتفوق الدينى ، فقد كان تفكيرهم منحصرا فى أن آخر الأنبياء سيولد من بين بنى إسرائيل ولكن حين كانت بعثته ﷺ من بنى إسماعيل أنكروا الإيمان برسالته ، لما فيهم من عصبية إسرائيلية ، ولكن كان من بينهم علماء حق وعدل وعلى رأسهم العالم اليهودى الشهير عبد الله بن سلام ، الذى صدق بالبشارات الواردة فى التوراة والإنجيل فيما يتعلق ببعثته ﷺ ، وآمن برسالته وقال : إنها رسالة عالمية ، وإن محمدًا مرسل لجميع البشر ، ودعا أهل دينه أيضا للدخول فى الإسلام ، وفضلا عن ذلك يتضح من خلال عدد من آيات القرآن أن إبراهيم وعيسى عليهما السلام قد بشرا بقدوم رسول مكى

يأتى من بعدهما اسمه أحمد ، والعديد من الآيات القرآنية تخبرنا بوضوح تام بأنه ﷺ مرسل إلى البشرية جمعاء ، وهناك شهادات لا حصر لها يمكن استخراجها من الحديث والتاريخ على عالمية رسالته وإنسانية نبوته . والنتيجة المنطقية والشهادة المنطقية هى أن هذه الجماعة الضخمة من البشر قد اعترفت به رسولا لله مرسلا للناس كافة ، ولما كانت نبوته ورسالته للناس كافة فإن النتيجة اللازمة والمنطقية هى أنه خاتم النبيين وخاتم المرسلين ، بالإضافة إلى هذا فإن الحفاظ على القرآن الكريم وتعليمات الإسلام حتى يوم القيامة هو شهادة منطقية على ختم نبوته عليه السلام . هذا بالإضافة إلى الشهادات العديدة التى لا تقبل الرفض والتى تتخلل جميع مصادر التاريخ الإسلامى ومراجعه ، ومع ذلك يلاحظ إصرار المستشرقين وعنادهم وتغاضيهم عن جميع تلك الحقائق والشواهد .

أما الشطر الثانى من دعواهم فتتضح حقيقته فى السطور التالية :

تبليغ الدين ونشر الإسلام :

قام المستشرقون وأعداء الإسلام بالهجوم هجومًا خطيرًا على أهم أبواب التاريخ الإسلامى ألا وهو تبليغ الرسالة – وهى الفريضة الأساسية – قائلين بأن نشر الإسلام فى العهد النبوى قد تم على نطاق محدود جدًّا .

وطبقا لتفكيرهم فهم يعتبرون أن الحياة النبوية فى مكة [١٣ سنة] كانت محدودة التوفيق والنجاح ، وفى خارج مكة أسلم عدد قليل جدا من الأشخاص ، وفى حياته بالمدينة [١٠ سنوات] لم يستطع أن يعطى لفريضة التبليغ حقها ؛ لأنه اضطر فى معظم الأوقات أن يواجه قريشا وبقية القبائل العربية ، وأن يخوض معها قتالا مسلحًا . وعام الوفود (٩هـ/ ٦٣٠ – ٦٣١م) الذى يشهد بأن الجزيرة العربية بأكملها قد قبلت الإسلام . هو أيضا غير مقبول لدى المستشرقين ؛ لأنه طبقا لتفكيرهم فإن معظم القبائل العربية قد

قبلت الرفعة السياسية للدولة الإسلامية و لم تقبل الإسلام .

وقد ذهب بعض المستشرقين اليهود والنصارى إلى حد أنهم قسموا حياة الرسول الطيبة إلى قسمين منفصلين ، فجعلوه رسولا مكيًّا مرة ، ورسولا مدنيا مرة أخرى ، ففى رأيهم أنه فى مكة المكرمة يبدو وكأنه رسول بينما هو فى المدينة جعل من نفسه قيصر العرب وحاكما سياسيا ؛ لأنه طبقا لتفكيرهم الباطل هذا فإن الرسول فى المدينة أنهى الرسالة وأبطل تبليغ الدين . وطبقا لدعواهم هذه فقد قضى معظم وقته فى هذه الفترة فى الحرب وفى إقامة التنظيم السياسى ، وفى تكوين وتشكيل الحكومة والدولة ، ولا شك أن بعض المؤرخين من ذوى الحس والشعور يقدمون هذا العذر قائلين : ولابد أنه قام بمحاولات من أجل تبليغ الدين غير أنها انحصرت فى المشاكل السياسية وطبقا لاعتقادهم فالإسلام قد انحصر داخل القبائل المتركزة بالقرب من المدينة ومكة ، أما قبائل مثل هوازن وغطفان فقد قبلت الإسلام فقط لتنال الرفعة السياسية ، و لم تقبله لتنال رفعة دينية أو رفعة بالإسلام ، أما القبائل اليهودية والمسيحية فقد قبلت بالحاكمية السياسية فقط ، وأنكرت ورفضت تماما فكرة تغيير الدين ، بينما لم يصل الإسلام إلى المناطق العربية الجنوبية والمناطق الشرقية ولا إلى قبائل المنطقة الشمالية الشرقية وإلى المناطق الشمالية ، وطبقا لدعواهم تلك فإن جميع هذه المناطق إذا كانت قد سلمت برفعة المدينة وحكمها إلا أن هذا الأمر اقتصر فقط على المعاملات السياسية ، و لم تكن له أى علاقة بالدين . وعلى المسلمين أن يحللوا تاريخيا هذه الدعوى الطائشة التى يدعيها المستشرقون .

ورغم أننا حتى الآن لم نحلل تحليلا كاملاً قضية تبليغ الإسلام ونشره فى العهد النبوى مرحلة تلو مرحلة إلا أننا عرضنا عرضا سريعا لبعض المطالعات فقط ، ويفهم من مطالعة مصادر التاريخ الإسلامى ومراجعه أن رسول الله ﷺ قد حالفه التوفيق الكامل فى تبليغ ونشر الدين فى مكة المكرمة ، فقد وجد

فى أسر وبطون قريش مسلمون وكان كل بيت من بيوت مكة فيه مسلم ، وذلك قبل أن يثبت الإسلام رايته هناك بعد فتح مكة ويفهم من المؤلفات المتقدمة لابن إسحاق وابن سعد والطبرى والبلاذرى ، وكذلك الكتب المتأخرة لابن عبد البر وابن الأثير وابن حزم أن بطونا وأسرًا متعددة من قريش البطائح (بنو هاشم ، بنو أمية ، بنو مطلب ، بنو نوفل ، بنو تميم ، بنو مخزوم ، بنو زهرة ، بنو سهم ، بنو أسد ، بنو جُمح) . وقريش الظواهر (بنو حارث ، بنو فهر ، بنو عامر ، بنو لؤى وغيرها) . قد وجد فيهم من أعلن الإسلام ، ثم كانت الأسر والبيوت المتفرعة من هذه البطون .

وطبقا لما ورد فى المصادر الإسلامية فإن الإسلام قد انتشر فى معظم الأحيان بين هذه الأسر الفرعية ثم كانت البطون والأسر المتحالفة مع بطون وأسر قريش من مثل حلفاء بنى بكير حلفاء بنى عدى ، وبنى غنى حلفاء بنى هاشم ، وبنى غنم بن دودان حلفاء بنى أمية وغيرهم ، ويعرف من الروايات أن الأسر المتحالفة المذكورة كانت بأكملها مسلمة ثم كانت طبقات الموالى والغلمان التى أثر فيها الإسلام تأثيرا كبيرا مثلهم كبقية الفئات الأخرى ، وقد رتب (ليون كيتانى ومونتجمرى وات) وغيرهم ، قوائم بقبائل وأسر مهاجرى مكة ، ولم يضمنوا هذه القوائم بعض أسماء رجال الإسلام ، ومن العجيب أن هؤلاء الذين ينادون بحرية المرأة ومساواة المرأة بالرجل قد أخرجوا من قوائمهم أسماء النساء المسلمات والأطفال !!

السكان المسلمون فى العهد المكى :

يعرف من تحليل قبائل وبطون مسلمى مكة أن عددهم حتى الهجرة إلى المدينة قد قارب الألف نسمة ، ويبدو هذا الرقم فى الظاهر مبالغا فيه ، لكن تحليل الروايات طبقا للأصول التاريخية الحديثة يدل على أن الرقم غير مبالغ فيه .

فى رواياتنا العامة لا نجد بيانا كاملا واضحًا يذكر جميع أفراد الأسرة وخاصة المسلمين فيها ، ولهذا فالأمر يترك تأثيرا على المؤرخ والقارئ يجعله يظن أن

هؤلاء الأفراد فقط كانوا هم المسلمين دون غيرهم . ولكن إذا أمعنا النظر فى القوة العددية للأسر فسوف نقف على العدد الأصلى لأفرادها ، وهناك حقيقة ظلت خافية بصورة عامة وهى الموالى ، فهؤلاء كانوا يعدون من أفراد الأسر كما يتضح من بيانات المؤرخين القدامى ، وهكذا يتضح من النظرة النقدية التحليلية أن أسرة الرسالة النبوية كانت تضم فى مجملها حوالى خمسة عشر فردا ، بينما أسرة الصديق رضى الله عنه وأسرة الفاروق رضى الله عنه كانت تضم كل منها عشرة أفراد ، ولا يقل عدد المسلمين فى أسرة كل من عبيدة ابن حارث ، وعثمان بن مظعون الجمحى ، وحارث بن قيس السهمى عن هذا العدد أيضا .

وهكذا ففى ست أسر مسلمة وصل عدد المسلمين إلى ٦٥ فردًا ، ويذكر ابن إسحاق أن أسرة بنى غنم بن دودان قد ضمت من المسلمين المكيين عشرين رجلا وخمس نساء ويذكر أسماءهم ، بينما يفهم من معلومات وبيانات ابن سعد وابن حزم أن عدد الأفراد البالغين منهم يصل إلى أربعين ، ويرى ابن إسحاق وابن سعد أن المجموع الكلّى للمسلمين المكيين لبنى غنم بن دودان وصل إلى ٣١ شخصًا .

ومن الجدير بالذكر هنا أن المستشرقين لم يضموا إلى إحصائياتهم المهاجرين الذين هاجروا إلى الحبشة فى أوقات متتالية وأقاموا بها وعادوا إلى المدينة فقط فى (٧هـ/ ٦٢٩م) لم يضموهم إلى مسلمى العهد المكى . ولقد جاوز عدد المسلمين المكيين بالحبشة مائة مسلم ، ومنهم من سمعت مكة بخبر إسلامه فاهتزت ، وهكذا يمكن تخمين عدد الأنفس أو عدد السكان طبقا للأصول الجديدة للإحصاء السكانى بضرب عدد الرجال البالغين فى خمسة لنصل إلى العدد التقريبى للسكان المسلمين .

ومن الواضح أن هذه الأصول لا تأخذ فى الاعتبار تعدد الأزواج والموالى

والغلمان ، وهو ما يجعل النسبة المتوسطة للسكان فى القرون الوسطى تزيد على ما هو مقرر حاليا ، ففى القرون الوسطى يجب أن يضرب عدد البالغين فى (٦) أو (٧) كما ذكر (بركات) فى كتابه عن الرسول الأكرم ويهود الحجاز . ومن هذه الناحية إذا أخذنا القائمة التى رتبها المستشرقون ، فإن عدد مسلمى مكة التقريبى يصل إلى ما ذكرناه .

نشر الإسلام خارج مكة :

هناك خطأ شائع يتعلق بتاريخ نشر الإسلام فى العهد المكى إذ اعتقد البعض أن السكان المسلمين خارج مكة المكرمة كانوا إما صفرا أو عددا لا يذكر ، بينما يتضح من الروايات التاريخية أن هذا التصور من أوله إلى آخره تصور خاطىء ، فالجميع يعرف أن من غير أهل مكة وجد أبو ذر الغفارى وإخوته التسع عشرة ، وهم من المسلمين الأوائل للعهد المكى ، لكن الحقيقة أن هؤلاء الناس لا يعرفون أن أبا ذر قبل الهجرة إلى المدينة تمكن بجهوده – التى تدل بلاشك على شغفه بالإسلام ، وعلى أن ذلك الشغف فاق كل حد – أن يدخل قبيلته كلها فى كنف الإسلام ، هذا بالإضافة إلى قبيلة أسلم وهى مجاورة لهم وحليفة لهم ، فقد صارت فى معظمها إن لم تكن بأكملها قبيلة مسلمة ، وطبقا لما تذكره الروايات فإن هاتين القبيلتين ضمتا على الأقل ألفى نسمة ، هذا بالإضافة إلى أن من قبائل العرب التى تعرفت على الإسلام فدخلت فيه فى العهد المكى : خزاعة ، أزد ، شنوة ، وأهم بطونها دوس ، بنو أسد بن خزيمة ، أشعر وعبد القيس وغيرها ، وكان بعض هذه القبائل ينتمى إلى منطقة الجنوب ، وبخاصة اليمن والجزء الشرقى .

ثم لا ينبغى أن ننسى أن معظم أهل المدينة المنورة ممن شرفوا بالإسلام إنما شرفوا به فى العهد المكى ، وحتى زمان الهجرة النبوية كان معظم قبائل الأوس والخزرج بالمدينة من المسلمين الذين دخلوا فى الإسلام نتيجة لجهود المبلغين

من مثل أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير العبدرى ، سفير رسول الله فى المدينة قبل الهجرة وطبقا لقول ابن إسحاق ، فلم يكن هناك من قبيلة أوس من هم خارج دائرة الإسلام سوى أوس مناة الذين ظلوا خارج دائرة الإسلام حتى غزوة الخندق ، وكان كل بيت مدنى بيتًا للإسلام على وجه التقريب .

وهناك حقيقة هامة خفيت بصفة خاصة عن الأنظار وهى أن تشكيل الأمة الإسلامية فى المدينة المنورة ، وتوسيع الدولة الإسلامية ، والنجاح والتوفيق العسكرى والسياسى والاجتماعى لرسول الله ﷺ إنما كان من ثمار الكفاح المجيد للعهد المكى ، والحقيقة أن المستشرقين المغرضين والمؤرخين من أعداء الإسلام يحاولون بخبثهم التآمر على هذا العهد المكى بالتقليل من الأثر الدينى للحياة النبوية فى العهد المكى ، وهذه المؤامرة جزء من خططهم التى يريدون عن طريقها إثبات النظرية القائلة بأن الإسلام لم ينشر تأثيراته الفكرية وتأثيراته الدينية بنفس القدر الذى نشر به قوته السياسية أو العسكرية ، وهم يريدون أيضا أن يوافقهم الناس على نظريتهم تلك .

ويرى بعض المؤرخين والمفكرين أن أفكار المساواة الاجتماعية فى الإسلام ، وتصور الإسلام للعدالة الاقتصادية كان سببا فى نشر الإسلام ، بينما الحقيقة هى أن نشر الإسلام وبخاصة فى مكة المكرمة إنما كان مرجعه إلى الجانب الدينى ، أما الجوانب الأخرى فكانت كلها جوانب ثانوية .

رسول أو حاكم :

فيما يتعلق بهذا الاتهام وهو أن الرسول يبدو فى مكة رسولا بينما يبدو فى المدينة حاكما وسياسيا ، فسببه أن المستشرقين وأذنابهم حبسوا أنفسهم داخل التصور الضيق للدين ، هذا بالإضافة إلى افتقارهم إلى الإحساس والشعور التاريخى أو نقصه لدى البعض منهم – وكذلك راجع إلى تعصبهم أو جهالتهم – ولما كان أكثر موجهى هذه التهمة من اليهود والنصارى الذين يمثل الدين لديهم

دائرة محدودة قاصرة على رسوم العبادات ، لهذا فقد نظروا إلى الإسلام فى نطاق نظرتهم إلى دينهم ، بينما الإسلام دين شامل يضم جميع جوانب الحياة سواء ما يتعلق فيها بالعقيدة أو ما يتعلق بالسياسة والمجتمع أو ما يتعلق بالجيش والحكومة أو ما يتعلق بالاقتصاد وغير ذلك ، ولا يمكن لأى فرع من هذه الفروع أن تخرج عن دائرة الإسلام الواسعة .

والأصل فى الإسلام أنه لا فرق بين الدين والدنيا ، فكل ما يجعلنا نغفل عن الله ونعمل خلاف أحكامه هو الدنيا ، وكل ما يدخل فى دائرة أحكام الله ومرضاته هو الدين . ومن هنا وجب تحليل ودراسة الحياة المدنية لرسول الله ﷺ فى ضوء هذه الخلفية لتصور الدين فى الإسلام وهو تصور واسع وشامل .

ويعرف من مطالعة الحياة المدنية لرسول الله ﷺ أنه قام بتشكيل الأمة الإسلامية وتنظيم الحكومة الإسلامية طبقا لما جاء بالقرآن الكريم وطبقا لأحكام الله ، وكل هذا عمل دينى ، وكل ما قام به وأنجزه من خلال الغزوات والسرايا كان فى سبيل تقوية الإسلام كما أن دحض الكفر وهزيمته إنما هو من الأعمال الدينية .

ورغم كل هذا فالحقيقة الواضحة أمام الجميع أنه ﷺ خلال كفاحه العسكرى ، والسياسى لم يصرف النظر ولم يتقاعس عن بذل جهده فى سبيل تبليغ الدين ونشره ، ويعرف من الروايات أنه بعد الهجرة مباشرة قام بدعوة القبائل اليهودية وبقية فئات العرب من غير المسلمين على السواء ، وأرسل جماعات لتبليغ الدين فى مختلف المناطق ، ومنها سرية مؤتة وسرية الرجيع وسرية ذات الملاح ، وغيرها من السرايا التى تلخصت مهامها فى نشر الدين .

لقد ارتكزت خطته ﷺ فى القيام أولا بدعوة الفريق الذى يحاربه إلى الإسلام ، وكانت هذه هى السنة التى مضى عليها الصحابة الكرام ، وكان

رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام أثناء الحرب والنزال ، أو بعد الغزوات . وهناك أمثلة عديدة على ذلك ، كما كان يدعو أسرى الحرب إلى الإسلام ، وقد تأثر الكثير بحسن سلوك رسول الله ودعوته ، فأعلنوا إسلامهم . كم دخل من أناس فى الإسلام فى فتح مكة ، وفى غزوة حنين والطائف !! لقد أسلمت جميع القبائل الجنوبية الشرقية عن طريق الدعوة والتبليغ ، وفى عام الوفود ، حين قدم ممثلو القبائل من كل أركان الجزيرة العربية ، ليعلنوا إسلامهم ، وليصبحوا لا مسلمين فقط ، بل مبلغين لدين الله ، يدعون قبائلهم لدخول الإسلام . وطبقا لإرشادات رسول الله كان جميع ولاة الحكومة الإسلامية ، وقضاتها وعمالها وأعضائها أساسًا من المبلغين والمعلمين ، وكان هذا أول فرض واجب على هؤلاء الولاة والحكام جميعا .

والخلاصة أن النظام النبوى بأكمله سواء كان سياسيا أو عسكريا ، اجتماعيا أو اقتصاديا ، كان محوره ومركزه هو الإسلام وتبليغ الإسلام ، وكان هذا هو السبب فى أنه عند حجة الوداع كان فى ركب رسول الله ﷺ وفى عرفات ١٤٠٠٠٠ [مائة وأربعون ألفًا] مسلما ، وهناك أضعافهم كانوا داخل بيوتهم مشغولين بذكر الله . والحقيقة أن خطة تبليغ دين الله وطريقة التبليغ قد تغيرت طبقا للظروف الجديدة فى المدينة المنورة . واتهام المستشرقين إنما يقوم فقط على أنهم لا يريدون أن يفهموا سواء عن عمد أو عن غير عمد هذه السياسة النبوية ومتغيراتها . واتهامهم الثانى يقوم على أن أكثر القبائل العربية ، بالإضافة إلى يهود ونصارى المناطق المختلفة لم يقبلوا الإسلام ورفضوه ، بل لم يعترفوا بالتفوق السياسى للإسلام ، ولا شك فى أن بعض القبائل فى المناطق البعيدة والمناطق الساحلية ومناطق الحدود لم تدخل فى الإسلام ، ولكن لا يمكن أن يقال إن الإسلام لم يصل إليها أبدًا ؛ ففى داخل مثل هذه القبائل جميعها كانت تدور معركة بين الإسلام والكفر ، إذْ أسلم بعض بطونها وأسرها فيما كان البعض الآخر لا يزال قائما على مذهبه القديم ، ولما كان معظم هذه القبائل من

المسيحيين لم يسمح تعصب المستشرقين لهم أن يعترفوا بتلك الحقيقة الدالة على أن أهل دينهم من المسيحيين قد قبلوا الإسلام بكل سرور وبكل إخلاص ورضا . والتحليل الكلى يخبرنا أن الأغلبية العظمى للقبائل العربية قد قبلت الإسلام ودخلت فى كنفه ، ولم يعد خارج هذه الدائرة سوى بعض الفئات والأفراد ممن كانوا يعيشون فى المناطق الحدودية .

وبديهى أن رسول الله ﷺ لم يكن مطالبا من رب العزة آنذاك أن يُدخل أهل الدنيا كلهم فى الإسلام ، بل كان عليه آنذاك أن يُدخل مجموعة كبيرة من البشر فى كنف الإسلام ، لتقيم مثالا عمليا أمام الناس ، وهو ما قام به رسول الله ﷺ ، فقد بلغ رسالته إلى جميع أفراد البشرية . والآن فإن على هذه الأمة الإسلامية مجتمعة تقع فريضة نشر الإسلام وعليهم أن يبلغوا الناس جميعًا به !!

بناء الدولة الإسلامية :

أظهر المستشرقون والمؤرخون الجدد خطأين كبيرين فيما يتعلق بالدولة والحكومة الإسلامية : الأول هو أن الدولة الإسلامية لم تشمل جميع شبه الجزيرة العربية ، وكانت محصورة فى مركز أو وسط الجزيرة العربية ، والخطأ الثانى هو أن الدولة الإسلامية كانت قائمة على النظام القبلى القديم للعرب ، وفيه كانت تفتقد إلى المركزية .

وفيما يتعلق بالخطأ الأول ، لو استعرضنا التاريخ الإسلامى فسوف نعرف أنه فى المجتمع المدنى وبعد الهجرة ، فإن الدولة الإسلامية التى قامت ونشأت كانت منذ البداية دولة مدنية ، ثم بعدها ونتيجة للمهمات الأولى التى أرسلها الرسول ، ونتيجة لمعاهدات الصلح والتفاهم مع القبائل المختلفة والصحيفة النبوية والغزوات والسرايا ، بدأت الدولة تتسع تدريجيا فى جميع الجهات ، وبعد غزوة بدر انتشرت وتوسعت بسرعة جهة الحدود الغربية ، وإن كان توسعها

وانتشارها قد قلّ قليلا حتى أيام غزوة الخندق إلا أنه بعد غزوة الخندق ، بدأت الدولة توسع حدودها بسرعة ونتيجة لغزوة خيبر ، وصلت حدودها من ناحية الشمال إلى مدى بعيد ، وبعد فتح مكة وفتح حنين وغزوة الطائف ضمت إليها المناطق الشرقية والقبائل الجنوبية ، وبعد خضوع قبائل العرب أصبحت الدولة الإسلامية تضم شبه الجزيرة العربية بأكملها ، واعترفت جميع القبائل العربية والمناطق العربية بتفوق المدينة وسلطتها والدليل التاريخى الذى لا يقبل الاعتراض والشك ، هو أن القبائل التى أسلمت قد قبلت مسئولية أداء الزكاة والصدقات ، بينما قبلت الفئات غير المسلمة دفع الجزية والخراج ، وظلوا بكل إخلاص وإيمان يحافظون على عهدهم فى أدائها ، هذا بالإضافة إلى أنه فيما يتعلق بجميع المعاملات السياسية والنظامية كانوا يطبقون أحكام رسول الله ﷺ ، ونكتفى هنا بذكر مثالين فقط :

كان بنو تغلب ، ونصارى ويهود القرى الشمالية يؤدون الجزية والخراج ، بل عرض هؤلاء دفع الزكاة مضاعفة بدلا من الجزية ، عرضوا هذا بأنفسهم ، وهو ما لم يقبله رسول الله ﷺ ، والأهم من ذلك أن نصارى نجران لم يسلموا فقط بأداء الجزية ، بل واتفقوا على شرط التوبة من العمل بالربا ، هذا بالإضافة إلى أنهم التزموا بالعمل طبقا للأحكام النبوية الأخرى ، وهذه دلالة عملية على ما كان للدولة الإسلامية والحكومة الإسلامية من عامل مؤثر .

يتأكد من البحث السابق أيضا أن دولة رسول الله ﷺ وحكومته كانت قائمة على أصول مركزية ، بينما كان النظام والشكل السياسى للعرب قبل الإسلام قائما على نظام قبلى خالص . ففى النظام الجاهلى كانت كل قبيلة، بل كان كل بطن يمثل بنفسه وحدة سياسية تقوم فى داخلها وبطريقة مستقلة بتسيير جميع أمورها الداخلية والخارجية بطريقة حرة لا يتدخل فيها أحد ، أما فى دولة رسول الله ﷺ ، فقد كانت له السيطرة وكان له الحكم على جميع القبائل

والمناطق المرتبطة بالمدينة المنورة . وكان على كل فرد من أفراد الدولة الإسلامية أن يطيع جميع الأحكام التى يصدرها رسول الله ﷺ بالمدينة ، فالمسلمون كانوا يعتبرون إطاعة رسول الله فريضة دينية تضم أيضا الوفاء السياسى وكانت فريضة الطاعة هذه قلادة يتزينون بها دائما ، بينما سلمت الفئات الأخرى من غير المسلمين واعترفت بسلطة الرسول السياسية عليهم . فأطاعوه وخضعوا لأحكامه ، وليس هذا فقط بل قام ﷺ فعين حاكما له فى جميع أنحاء البلاد ، وعلى جميع قبائل ومناطق شبه الجزيرة العربية ، حتى يقوم بتنفيذ قانون الله وتسيير نظام الحكم الإسلامى فى البلاد ، وكان هؤلاء الحكام النبويون على طريقتين ؛ حكام مركزيون وحكام محليون . وكان الرسول يعينهم ويغيرهم ويعزلهم ، بصفته الحاكم الأعلى ، وكان جميع العمال والحكام المركزيين فى الأقاليم وفى القبائل ممثلين للحكومة الإسلامية وعمالًا لها ، مع أن نظام الحكم النبوى لم يكن ليضم أصول التقسيمات الخاصة بالمسئوليات طبقا للعصر الحاضر إلا أننا سنعرضه بنفس الشكل الحديث حتى يمكن فهمه .

تنظيم الحكومة :

أسس رسول الله ﷺ نظاما عسكريا ، ونظاما مدنيا ، ونظاما ماليا ، وكانت مسئولية أو منصب القائد الأعلى فى نظام الجيش من نصيبه عليه الصلاة والسلام ، وكان القائد العام المستقل ، ولم يكن فى وجوده وجود لأى قائد آخر ، إلا أنه طبقا لبعض الظروف ، وانطلاقا من فكرة تربيته للأمة ،فقد كان ينقل مسئوليات جيشه إلى نوابه ، مثلما حدث فى الغزوات حين كان ﷺ قائدا عاما للجيش قرر أن يعين له بعض النواب للقيادة داخل النظام الذى سمى « خميس » إلى تقسيم الجيش إلى خمس مجموعات : المقدمة ، الميمنة ، الميسرة ، القلب ، والساقة ، عين رسول الله قادة لجميع أقسام الجيش عدا « القلب » ، ومن الواضح أنهم جميعا كانوا يلتزمون بأوامره وإرشاداته ،

ويخضعون لحكمه ودستوره ، وفى السرايا كان يعين قائدا للجيش الإسلامى نائبا عنه ، وقد وصل عدد هؤلاء طوال العهد النبوى إلى ٧٤ قائدا ، وكان تعيينهم يتم طبقا لما لهم من كفاءة ولياقة ، وطبقا للظروف والملابسات المحيطة بالمواقف ذاتها لا طبقًا لعوامل تتعلق بالقبيلة أو النسب أو الحسب أو ما إلى ذلك ، بالإضافة إلى ذلك فيما يتعلق بتعيين ضباط الجيش الآخرين ، فقد عين رسول الله أصحاب الألوية ، ضباط الطلائع ، العيون ، الدليل ، أصحاب المغانم والأسرى ، أصحاب السلاح والفرس ، والضباط محافظى المجموعات . وتم تقسيم النظام المدنى إلى نظام مركزى ونظام إقليمى ، وداخل النظام المركزى احتل خلفاء الرسول المكانة الأهم ، فكانوا يتولون الإشراف على أمور الأمة فى غيابه ، وبعدهم يأتى المستشارون والكتبة وسفراء النبى ، وخص بعض « الضباط » لتصفية القضايا ، والوقوف على الأمور الخاصة . وكان للشعراء والخطباء مكانة هامة أيضا ، فقد كانوا يدافعون عن الدولة الإسلامية عن طريق الإعلام والدعاية الصادقة ، وكان أهم مسئول فى الأقاليم الحكومية هو الوالى أو الحاكم الذى كان يعين ويرسل من المدينة المنورة ، وكان فى الأصل ممثلًا للسلطة المركزية لدى أهل القبائل وفى الأقاليم ، وقد ورد ذكر تعيين ٣٢ حاكما (واليا) فى ٢٦ إقليم أو ولاية ، وكان يساعد الحاكم أو الوالى مسئولون محليون وكانوا بصفة عامة من شيوخ القبائل ، وعلاوة على ذلك كانت هناك بعض المسئوليات والمناصب التى يتولاها بعض المسئولين فى الحكومة المركزية وفى الأقاليم أيضا مثل الحاجب وغير ذلك ، وكانت شئون الحكم تدار بالتعاون بين المسئولين المحليين والإقليميين ومسئول الحكومة المركزية ، وكان جميع هؤلاء يقومون بإدارة شئون البلاد تحت إشرافه ﷺ وطبقا لإرشادات الأحكام القرآنية .

وفى النظام النبوى كان نظام المالية يضم عدة مناصب ومسئوليات ؛ ففى الحكومة المركزية كان هناك عمال الصدقات المركزيين ، كما كان هناك فى

الأقاليم وفى المحليات كليهما عمال محليون يقومون بتحصيل الزكاة والصدقات من المسلمين وجمع الجزية والخراج من غير المسلمين ، ويجمعونها لدى الوالى أو الحاكم ، وكان عمال الصدقات المركزيون يقومون بإرسال نصيب الحكومة المركزية ـــ الذى كان يشتمل على الخمس ـــ إلى المدينة المنورة . ومن الواضح أن عمال الصدقات المركزيين كانوا يقومون بإيصال صدقات المناطق المركزية إلى المدينة المنورة وما حولها من مناطق خاضعة لها ومن بين المسئولين كان هناك من يقوم على الإنتاج كأعمال الخرص / الخراص ، وأصحاب الحمى [الأول على الزراعة والإنتاج والثانى على المراعى] .

ونتساءل ... أى علاقة لنظام الحكم المركزى المفصل هذا الذى مضى على نسق ثابت ومحدود من النظام القبلى للعصر الجاهلى ؟ لقد كان رسول الله من حيث كونه مبلغا عن الله هو الحاكم الأعلى للدولة الإسلامية جميعها ، ولهذا كانت مركزية حكومته ودولته أمرًا لازما وشيئا منطقيا ظهر ووضح فى شكل تطور الإدارات السياسية . أما النتيجة التى وصل إليها المستشرقون ، والتى تقول إن حكمه ﷺ كان مبنيا على أساس النظام القبلى فقد اشتملت على نتائج خاطئة ، حقا لقد استفاد ﷺ إفادة كاملة من بعض هيئات النظام القبلى القديم . وقد أقرها ما دامت ذات فائدة ، إلا أنه أسس دولته وحكومته على أصول المركزية ، وأكبر دليل على مركزية النظام هو الوحدة السياسية التى شملت شبه الجزيرة العربية كلها ، وهى الوحدة التى تحققت لأول مرة للعرب فى ظل الإسلام ومحمد رسول الله ، وكانت مركزية الحكم والدولة من ثمار كون الإسلام دينًا وسياسة معًا أى دين ودولة ، دنيا وآخرة معًا .. و هكذا وبعد وفاة رسول الله ﷺ بعدة سنوات أظلَّ الإسلام جزءًا كبيرًا من العالم ، وشملت حدود الدولة الإسلامية منطقة شبه الجزيرة العربيـة ومناطق أخرى تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب .

الخلافة الراشدة
(١١ ـــ ٤٠ هـ / ٦٣٢ ـــ ٦٦١م)

قيام مؤسسات الخلافة :

انتقل الرسول الأكرم إلى الرفيق الأعلى فى ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ ٢٠ يونية سنة ٦٣٢ م ، وبعد وفاته كان من الضرورى أن تظهر هذه القضية إلى الوجود وهى : من سيخلفه ؟ وما هى حقوقه ومسئولياته ؟ وما هى حدود عمله ؟ ولأن رسول الله ﷺ لم يعين فى حياته خليفة له ، كان من الضرورى أن تبرز هذه القضية ، ويثار هذا السؤال ، ثم إنه ﷺ كان خاتم الأنبياء وخاتم الرسل ولا يمكن لأى شخص أن يكون رسولا أو نبيا بعده ، ولهذا كان من الواضح للأمة كلها ، أنه ما عدا مسئولياته النبوية التى نالها ﷺ من حيث كونه رسول الله ، فإن جميع المسئوليات الأخرى كان لمن يخلفه أهلية القيام بها .

لقد ظهر اختلاف فى الرأى بين الصحابة الكرام على من يخلفه ، وهذه مرحلة ضرورية وحتمية فى تطور أى مؤسسة أو إدارة ، إلا أن الأمة اجتمعت على ما فيه خيرها ووجدت الحل الأمثل لقضية الخلافة ، ووصلت إلى قرار لا يمكن أن يكون هناك ما هو أحسن منه لصالح الإسلام ، ففى اجتماع سقيفة بنى ساعدة ، وبعد بحث كافٍ تم انتخاب أبى بكر الصديق بالإجماع ليكون أول خليفة للنبى ﷺ ، وكان أقرب الصحابة إلى النبى وأفداهم له وأكثرهم تضحية ولم يكن فى الأمة من هو أحق بهذا الحق منه .

ولقد حاول مغرضو المؤرخين والمتآمرون مسخ الأحداث المتعلقة بمؤسسات الخلافة ، بداية الخلافة ، اختلاف الصحابة الكرام ، وانتخاب الخليفة الأول ،

بل ووجهوا هجومًا عنيفًا عليها ، وقد حاول هؤلاء المؤرخون أن يجعلوا من اختلاف الأمة على من يخلف الرسول صراعا طبقيا ، وفى رأيهم أن الأمة الإسلامية انقسمت بعد وفاة النبى إلى ثلاث مجموعات متحاربة متناحرة ، وهم : المهاجرون ، الأنصار ، وأصحاب النص والتعيين ، وكل طبقة من هذه الطبقات كانت تريد أن تحصر الخلافة فيها ، والطبقة الأخيرة كانت تريد أن تجعل من على رضى الله عنه خليفة بناء على حق الولاية ، وعلاوة على هذه الطبقات الثلاث كانت هناك جماعة بنى أمية والذين كانوا يرون لأنفسهم شرفا سياسيا واجتماعيا داخل المجتمع العربى ، كما كانوا ولا شك يحلمون بأن يتولوا حكم العرب إلا أن التاريخ الإسلامى قد أثبت أن رسول الله ﷺ قد ترك لأصحابه قضية خلافته ، وكانت هذه حكمة عالية نبعت من روح الإسلام .

والبحث الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة لم يكن نتيجة تخريب سياسى أو تكتل فئوى بل هو دليل على إبداء جميع الأفكار والنظريات ، فالأنصار بما قاموا به من تضحيات يرون أنفسهم أحق بالخلافة بينما ممثلو المهاجرين يريدون أن يحسم الأمر فى ضوء المصلحة الأهم للأمة ، وفى النهاية يتفق الأنصار مع وجهة نظر المهاجرين فى هذا الأمر ، وقد ظل الأنصار طوال عصر الخلافة الرشيدة وحتى العصر الأموى والعباسى يبحثون عن الحق من أجل الوصول إليه لا من أجل هوى النفس كما يحاول المؤرخون المغرضون إثباته ، وفيما يتعلق بالفئتين المذكورتين أخيرا (أصحاب النص والتعيين والأمويين) فلم تكن لها وجود كجماعة أو طائفة سياسية فى تلك المرحلة التاريخية ، أما التكتل فهو أمر وقع فى القرن الرابع .

ومن الملاحظ أن نظرية المؤرخين السابقة إنما تعرض فقط من أجل إعطاء صورة تعبر عن اختلاف الأمة ، ومن أجل تصوير الاختلاف على أنه صراع

طبقى ، وذلك لمسخ التاريخ الإسلامى .

وهناك كاتب جديد هو « البروفسر خورشيد أحمد فاروق » قام بتشويه التاريخ الإسلامى ــ عن قصد أو عن غير قصد ــ إلا أنه للوصول إلى نتيجة يبغيها استخدم مراجع ومصادر خاطئة وروايات غير صحيحة ليصل فى بحث من أبحاثه إلى أن ثلاثة من كبار رجال الأمة : أبا بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وأبا عبيدة الجراح ، أعدوا خطة محكمة لتكون الخلافة فى قبيلة قريش فقط دون غيرها ، على ألا تجتمع الخلافة والنبوة فى أسرة واحدة من قريش أى بنى هاشم ، وأن يُحرم منها أنصار المدينة .

وتحليل هذا الكاتب تحليل ضعيف قائم على روايات موضوعة ونتائج فاسدة ، وهو ينظر إلى التاريخ الإسلامى كله من زاوية قائمة على العصبية وقد أشار إلى أن الرسول ﷺ قد اختار بعض بنى هاشم ليتولوا مناصب فى الدولة مع أنهم فى العهد النبوى كله لم ينالوا سوى أربعة مناصب ومسئوليات عارضة ، وهؤلاء هم : حمزة بن عبد المطلب ، وجعفر بن أبى طالب ، وأخوه ، ونوفل بن حارث ، وكانت تلك المسئوليات قيادة الجيش أو شيئا من هذا القبيل . وفى مقابل ذلك نال غيرهم من بنى أمية والخزرج والأوس وغيرهم مناصب أكثر ، ومن موالى بنى هاشم تولى زيد بن حارثة وابنه أسامة وغيرهما مناصب فى القيادة العسكرية ، ولأنهم من طبقة الموالى فلم يكن هناك أى دعوى من أى نوع .

وجميع بنى هاشم وموالى بنى هاشم ممن تولوا مناصب فى الحكم إنما تولوها بناء على ما يتمتعون به من كفاءة واستحقاق لا بسبب تحيز أو ترجيح على أحد ، والكاتب المذكور يذكر من فىء الأراضى ، الحدائق السبع التى وهبها مخيرق اليهودى وأملاك قبائل اليهود الذين نفوا من المدينة (بنو قينقاع ، بنو نضير ، بنو قريظة) والأراضى الزراعية فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى .

ويذكر الدخل والخراج الوارد منها . وصحيح أن أفراد بنى هاشم قد نالوا نصيبهم من هذه الأموال مثلهم فى ذلك مثل غيرهم ، وصحيح أيضا أنه تقرر نصيب من خمس أموال الغنائم لفقراء بنى هاشم ، إلا أن هناك بالإضافة إلى ذلك بعض الحقائق التى صرف الكاتب نظره عنها وتجاهلها ، فلو أن نصيبا من خمس الغنائم كان قد خصص لبنى هاشم فإن نصيبين منها قد خُصص لفقراء المسلمين ولشراء الأسلحة ، كما أن دخل فىء الأراضى لم تنله بنو هاشم فقط بل استفاد منه جميع طبقات الأنصار والمهاجرين ، ثم إن هذه ليست صدقات ، إذ كان لها مصرفها الذى تصرف فيه . طبقا للضرورات ، كما أن ابن إسحاق ، والواقدى ، وابن سعد ، والطبرى وغيرهم وجميع المؤرخين الأوائل وكتاب السوانح ، وكل من كتبوا عن الخراج والأموال من مثل أبى يوسف وابن قدامة ويحيى بن آدم وأبى عبيد قاسم بن سلام وغيرهم ، تتضح من كتاباتهم أن جميع طبقات المسلمين كانت مستفيدة من جميع الأراضى والأموال .

إن النقد التاريخى والتحليل التاريخى يستلزم أن نقوم مع تحليلنا للدخل بتحليل المصرف والنفقات أيضا ، حتى يمكن تحليل الداخل والمنصرف ، أو حتى يمكن أن نحلل تحليلا صحيحا تجميع الثروة والحصول عليها .

ويشهد التاريخ أن جميع الطبقات الغنية بين الصحابة الكرام قاموا بإنفاق نصيبهم (أسهمهم) كلها على ضرورات وحاجات الأمة بدلا من إنفاقها على أنفسهم وعلى أسرهم ، والتحليل الاقتصادى للكاتب المذكور إنما ارتكز على الإفراط والتفريط وأخذ شكلا متعصبا ، واتجه إلى مسخ المصادر التاريخية وهذا جزء من خطة معينة يهدف إليها .

وهذا هو الحال فى الاتهام الذى قال فيه : إن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة قد أعدوا خطة ، أو أحاكوا أنواعا من المؤامرات لقصر الخلافة على قريش

وحرمان أسرة النبوة وأنصار المدينة منها . ولاشك أن صدى نظريات المستشرقين يُسمع واضحًا فى فكرة الفج هذا . وقد قال « وليم مور » و « فيليب حتى » و « ديغلرى » وجميع المستشرقين تقريبا بحكاية مؤامرة هؤلاء الصحابة الثلاثة للقبض على الخلافة ، كما اعتبروا انتخاب أبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة هو المحصلة النهائية لهذه المؤامرة ، كما أن هؤلاء المؤرخين يوجهون التهم أيضا القائلة بحرمان أنصار المدينة من حقهم المشروع .

يقول خورشيد حول أحداث سقيفة بنى ساعدة : « قرر قادة الأنصار تعيين سعد بن عبادة الخزرجى خليفة لرسول الله ﷺ وعقدوا اجتماعا لإعلان قرارهم هذا ، اشترك فيه سعد بن عبادة وبقية أكابر الأنصار » . وبعد أن يذكر خطبة سعد بن عبادة يقول : « سأل بعض قادة الأنصار ، لو رفض مهاجرو قريش مطلبهم هذا ، واستشاطوا لهذا المطلب قائلين بأن الخلافة حق لهم ، فماذا يجب على الأنصار أن يعملوا ؟ وبعد نقاش طويل وقيل وقال صدر قرار يتلخص فى أنه يجب على الأنصار حينئذ أن يطالبوا بأن يكون الخليفة مرة قرشى ومرة أنصارى » .

وعندئذ وهنا يقوم المؤرخ المذكور باقتباس خطاب حباب بن المنذر من الطبرى وهو الخطاب الذى يتضمن الفقرة الشهيرة : « فمنا أمير ومنهم أمير » .

وبعد أن يحيل القارىء إلى غليان الأنصار كرد فعل لرد عمر الفاروق عليهم ردا مفحما ، يقوم الكاتب فينقل رد حباب بن منذر عن ابن أبى الحديد وكتاب الإمامة والسياسة ، وهو الرد الذى قال فيه يجب إخراج قريش من المدينة والاستيلاء على الخلافة ويزداد النقاش الحاد بين الفريقين ويشاهد هذا أحد قادة الخزرج الممتازين وهو بشير بن سعد فيقوم بتأييد قريش فى خطاب يلقيه بين الناس ، وحين يرى أبو بكر أن مجرى الأمور يتغير ، يقوم بترشيح زميلين له من قريش ليكون أحدهم خليفة ، إلا أن عمر يذكر أفضلية أبى

بكر وتفوقه على الجميع ، فيشير بالبيعة فجأة ، إلا أن بشير بن سعد يسبقه ويبايع أبا بكر ، ثم يقوم الفاروق ، ومن بعده الصحابة الآخرون ، فيبايعون أبا بكر ، ويقوم زعيم الأوس أُسيد بن حضير نظرا لخوفه من الخزرج ، يقوم هو وجميع رؤساء قبيلته كلهم فيبايع أبا بكر ولم يبق سوى سعد بن عبادة الذى لم يبايعه .

والكاتب يوزع اتهاماته على الجميع فيتهم بشير بن سعد الخزرجى بالحسد والغيرة ، ويتهم أُسيد بن حضير وأكابر الأوس بالتعصب القبلى ، ويتهم عمر ورفاقه بالتآمر والتخطيط ، ويتهم الخليفة الأول باغتصابه حق بنى هاشم وعدم التعاون معهم .

ويركز الكاتب المذكور كل جهده على نقطة هامة بالنسبة له وهى كيف يثبت أن البحث والجدال الذى دار بين الصحابة فى نقاش قضية الخلافة إنما هو اختلاف وتفرقة بين الأمة ومن هنا استخدم كل وسيلة وكل سبيل لإثبات ذلك ، فهو يقول بأن بنى هاشم قد أجرموا لأنهم تحرزوا من بيعة الصديق ، بينما جميع الروايات توضح أن ثلاثة أو أربعة أفراد فقط هم الذين امتنعوا عن بيعته . وأصح رواية من هذه الروايات هى الرواية التى تقول بأن عليًّا رضى الله عنه وجميع رفاقه وأصحابه حين سمعوا خبر خلافة أبى بكر قاموا بمبايعته ، وقد قام رضى الله عنه وخرج من بيته فى الحال ولم يكمل وضع ثيابه على جسمه حتى لا يتأخر عن البيعة .

أما قضية الفدك وأراضى الفىء الأخرى فقد اختلف أبو بكر فى البداية مع فاطمة رضى الله عنها فى مسألة الوراثة والتركة ، وبعد أن تحدث معها وناقشها رضيت وانشرح صدرها ، ولم تطلب شيئا بعد ذلك ، وفيما يتعلق بقضية أنصار المدينة ، يتضح من الروايات أنهم أنفسهم أحسّوا بضعف موقفهم ، وأعطوا الحق لقريش ، ليس فقط بناء على أنهم قبيلة رسول الله ،

بل لأنهم كانوا يعرفون ما قدموه من خدمات دينية وتضحيات . وكانوا على علم بتلك الظروف والعوامل التى يمكن أن تجعل الجزيرة العربية كلها تعترف بحكم قريش وولايتها ، وهذا هو السبب الذى جعلهم يعترفون بأفضلية المهاجرين وتفوقهم حين ذكرهم أبو بكر بدقة الموقف وحساسيته ، ولا شك أنهم كانوا فى البداية يتمنون أن يشاركوا فى السلطة العليا عن طريق اقتراحهم الذى يهدف إلى المصالحة ، وهو الاقتراح القائل : « فمنكم أمير ومنا أمير » ، وخورشيد جعل هذه الفقرة أمامه ، ورأى أنها تدل على انتقال السلطة بين قريش والأنصار ، وأنها تعنى المشاركة فى الحكم والسلطة ، ثم هو من ناحية أخرى يرى أن اقتراح بشير بن سعد الخزرجى وأسيد بن حضير الأوسى مخالف للأنصار وفى صالح قريش ، ومن ناحية أخرى يدعى أن جميع قادة الأنصار أرادوا أن ينصبوا سعد بن عبادة الخزرجى خليفة ، وحين لم يوفقوا فى ذلك لم يرضوا فقط بالخليفة الأول ، بل اتبعوا سياسة عدم التعاون معه طول مدة خلافته .

إن الشعور التاريخى والإحساس التاريخى للكاتب لم يوقفه ولم يمنعه من الحصول على معلومات من مراجع ضعيفة متحيزة زائفة ، قدم على أساسها نظرياته فجاءت فاسدة ، إن المؤرخين يتفقون جميعا على أن ابن أبى الحديد واليعقوبى من مؤلفى الشيعة ، لهذا فرواياتهم فى حق الخلفاء الثلاثة غير مقبولة أساسًا ، شريطة ألا تتصادم مع المراجع الأخرى . والأمر الثانى أن يتفق المؤلف مع روايات كتاب « الإمامة والسياسة » وهو كتاب مزيف ، وحين يحيل القارىء إلى روايات الطبرى فهو يأخذ جانب التحيز ولا يتبع أسلوب الحيدة ، إنه يأخذ الروايات التى تحقق مطلبه فيذكرها ويصرف نظره ويتجاهل عن الروايات التى تخالف نظرياته ، وأكبر جرم فى كتاباته التاريخية هو أنه ينسب إلى أفراد وطبقات الأمة أعمالا ونوايا لا يمكن أن يجد مصدرا أو مرجعا

يؤيدها ، ثم إنه يقوم بتوجيه اتهامات سطحية ساذجة ركيكة إلى الصحابة الكرام خلال تحليله التاريخى ، إن دلت على شيء فإنما تدل على ميوله الشخصية وما طبع عليه .

والهدف الأساسى للكاتب المذكور هو أن يوجه الطعن لأهم واقعة فى التاريخ الإسلامى ، وهى الواقعة التى خرج منها الإسلام منتصرا ، ونجا مما أحيك له من مؤامرات .

بعد أن اتضحت الصورة الأصلية من خلال عرض وتحليل جميع المصادر التاريخية ، اتضح لنا أن فاجعة وفاة الرسول كانت صدمة مفاجئة ومحيرة ، لدرجة أن عمر الفاروق هذا الرجل صاحب الإرادة الحديدية وصاحب الفكر الثاقب قد أصيب بالحيرة والدهشة ، كما اجتاح المدينة كلها شعور غريب ، وأبو بكر الصديق يسمع بخبر وفاة الرسول فلا يصدق ، وبعد أن يصدق خبر وفاة النبى ، ألقى خطبته الشهيرة بالمسجد النبوى ، تلك الخطبة التى أعادت للناس هدوءهم وتفكيرهم ، ثم بدأ تجهيز رسول الله ﷺ وتكفينه تمهيدا لدفن جسمانه الطاهر وفى تلك الأثناء كان اجتماع سقيفة بنى ساعدة حيث يدور النقاش فى قضية من يخلف رسول الله . وحين طال النقاش وشعر النعمان بن بشير الخزرجى بحرج الموقف ، خرج لإخبار المهاجرين بألا يتخذوا ما يسىء للموقف أكثر ، وحضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة مع بعض المهاجرين الآخرين ووصلوا إلى سقيفة بنى ساعدة حتى لا يسمحوا للموقف بأن يطول أكثر ، وتشهد الروايات بأن جموع الأنصار أظهروا سرورهم بوصولهم هناك ، فعرض الأنصار وجهة نظرهم ، وقدموا الدلائل المؤيدة لحقهم ، فامتدح أبو بكر مآثرهم وتضحياتهم التى قدموها للأمة ، إلا أنه بناء على عدة أسباب ودلائل فإن لقريش الأفضلية ، واتفق الأنصار على ذلك ، ولما قدم الأنصار اقتراحهم على أساس جعل الخلافة مشاركة بين قريش

والأنصار ، ورأى أبو بكر أن هذا أمر لا يمكن العمل به ، قدموا اقتراحًا بديلا ؛ وهو أن تكون الإمارة فى قريش والوزارة فى الأنصار ، ثم أُسمعوا إرشاد النبى أن يكون الإمام والحاكم من قريش . وحين سمع الجميع الإرشاد النبوى خفضوا رؤوسهم ، وحينئذ قام أبو بكر فأخذ بيد أخويه من المهاجرين ، واقترح البيعة لأحدهم ، إلا أن عمر أعلن أن لأبى بكر الأفضلية ، وأشار بيده طالبا أن يبايع الجميع أبا بكر ، وعليه قام جميع الصحابة الموجودين فبايعوا أبا بكر ، وطبقا لرواية أخرى فإن عمر ذكر فجأة موضوع البيعة هذا ، إذ لم يكن هناك أى تفكير مسبق فى عقد الخلافة على أبى بكر ، وبعدها صعد أبو بكر إلى المنبر فى المسجد النبوى لأنه لم يشأ فقط أن يحصل على تصديق الأمة الذى حصل عليه ، بل ليسمح وليأذن للأمة بأن تنتخبه ، لأنها لم تكن قد انتخبته بعد . وهكذا أجمعت الأمة على مبايعته بالخلافة .

فتنة الردة :

بعد وفاة رسول الله ﷺ ، أُعلن العصيان فى بعض مناطق الجزيرة العربية ضد الإسلام ومركز الإسلام « المدينة » ، وهو العصيان الذى أطلق عليه المؤرخون المسلمون « الردة » أو « الارتداد » .

وقد حاول المستشرقون بصفة عامة ، والمؤلفون المحدثون بصفة خاصة ، اعتبار فتنة الردة هذه عصيانا سياسيا ورغبة تحرر طبيعية لدى قبائل العرب ، ورغبة فى التحرر من التسلط السياسى والعسكرى لخلافة الصديق وسيطرة المدينة . والمستشرقون ــ طبقا لأسلوب فكرهم الخاص ــ قالوا إن هذه الحركة كانت رغبة ومحاولة للحصول على الحرية ، ويرون أن إطلاق اسم « ردة » أو « ارتداد » عليها إنما هو خطأ ، وذلك لأنه إذا أطلقنا هذا الاسم

على هذه الحركة المعادية للإسلام فإنه يستلزم أن يكون العصاة قد أسلموا قبلًا ثم تركوا الإسلام بعد وفاة النبى . والمستشرقون لا يريدون أن يعترفوا أن شبه الجزيرة العربية كلها كانت خاضعة لراية الإسلام فى العهد النبوى ، ففى ظنهم أنه لم تكن هناك قبيلة مسلمة سوى مهاجرى قريش وأنصار المدينة وبعض القبائل فى وسط الجزيرة ، أما بقية القبائل العربية فقد قبلت بالتفوق السياسى للمدينة والرسول ، وبعد وفاته أرادت أن تتخلص من هذا الخضوع ، ومن هنا حاولت أن تتحرر من سيطرة المدينة وتنال استقلالها القديم .

ولم ينكر المستشرقون فقط أن قبائل المنطقة الحدودية (بالجزيرة العربية) قد قبلت الإسلام ، بل إن من يمشون فى ركابهم من مثل خورشيد أحمد فاروق ينكرون أيضا أن قبائل المنطقة المركزية (وسط الجزيرة) والعرب الوسطى قد قبلت الإسلام ويقول :

« كان أول هدف عسكرى خطير ، وأقرب هدف عسكرى خطير ، وأهم هدف عسكرى خطير أمام أبى بكر هو نجد ، حيث كانت تسكن قبائل ذات حال حسن إلى حدٍّ ما ، ومتمدنة ومتحدة ، منها عامر وهوازن وسليم وفزارة وعبس وذبيان وأسد وطيئ وتميم وحنيفة ، وكانت فى عددها وقوتها أكثر من القبائل الأخرى . ومن هذه القبائل لم يدخل فى الإسلام إلا خمسة أو عشرة فى قبيلة ما وفى قبيلة أخرى خمسون أو مائة ولا أكثر من ذلك ، وكان السواد الأعظم منهم إما أنهم خاضعون للمدينة ويعارضون الصلاة والزكاة ، وإما أنهم خضعوا للمدينة خضوعا اسميًّا فقط ، حتى يحفظوا على أنفسهم استقلالهم ، وكانوا على استعداد لتحمل أداء فرضية الصلاة بشرط إسقاط الزكاة » .

والكاتب المذكور فى بيانه هنا ، بالإضافة إلى أنه خلط وأخطأ فى ذكر منطقة السكن الجغرافى للقبائل وعدد آخر من الأمور ، فالأهم من ذلك أنه ذكر أن الإسلام لم ينتشر بين القبائل المذكورة ، وإذا انتشر فقد انتشر على نطاق ضيق جدا .

ونسوق مثالا واحدا هنا دليلا على خطئه ، فطبقا لبيان ابن إسحاق فإن بنى سليم فقط قد أعدُّوا ألف مجاهد تقريبا لرسول الله ﷺ لمهمة فتح مكة . فهل كانوا جميعا غير مسلمين ؟ ثم إنه ذكر أن هوازن وطيئا وغيرهم لم يكونوا مسلمين ، بينما كانوا قد أسلموا . وهوازن لم يشاركوا فى الردة . ودعوى المؤرخ المذكور هى فى الواقع على عكس الواقع ، أى أن السواد الأعظم كان من المسلمين ، وأن عددًا قليلا كان غير مسلم ، وبعد وفاة النبى ﷺ نجحوا فى التشويش على الآخرين . والخطورة الأكثر هنا هى تلك الحملة الخطرة التى قادها الكاتب خورشيد فاروق ، فقال عن القبائل العربية إنها لم تكن مع المدينة ومع الإسلام بإيمان القلب وبإخلاص النية وصدقها ، بل كانت معها نفاقًا وخوفا من الخليفة ، أو بسبب علاقة قرب مع رسول الله ﷺ أو منة .

ثم يقول الكاتب المذكور : « ظلت قريش مكة وثقيف الطائف وبعض فروع قبائل نجد وعدة قبائل من قبائل المناطق المحيطة بالمدينة ، بالإضافة إلى مزينة وجهينة وغفار وأسلم وأشجع وكعب ، وهى القبائل التى خافت على نفسها عقاب الخليفة العسكرى ، أو كانت تربطها مع رسول الله قرابة أسرية ، أو نتيجة لإحسانه وفضله ، هذه القبائل ظلت تمسك بتلابيب الإسلام ، أما بقية العرب فقد تغيرت اتجاهاتها وتغير لونها وعقدت العزم على التحرر من سيطرة المدينة » .

وطبقا لبيان الكاتب المذكور لم يقبل أحد الإسلام فى العهد النبوى بإخلاص من كل قلبه أو بفهم وإدراك ، كما أن أحدًا لم يشأ أن يظل قائما على الإسلام بعد وفاة الرسول بإخلاص وإيمان ، لقد قام عدى بن حاتم الطائى بإدخال قبيلته الباغية وبقية القبائل ، وبخاصة بعض جماعات جديلة وأسد إلى حظيرة الإسلام بعد حرب بزاخة ، إلا أن البروفيسر فاروق يرى أن عودتهم

إلى الإسلام كانت بسبب مصلحة سياسية وضغط عسكرى أو بسبب الخوف والعقاب .

كما قرر الكاتب المذكور أن الثلاثة الذين ادعوا النبوة ؛ مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى وأسود العنسى ، هم رؤساء أكبر قبائل البلاد ، وذكر أنه نتيجة لسوء نواياهم وقلوبهم السوداء انفصلوا عن رسول الله وتحرروا من سيطرته ، كما ذكر أنهم كانوا أكبر منافسين للنبى ﷺ ، واعترف أيضا بنبوتهم ، كما اتهم بنى هاشم والأنصار بعدم التعاون فى حروب الردة ، وعدم اشتراكهم فى الجهاد الإسلامى ، بينما يذكر من ناحية أخرى أنه فى حرب اليمامة اشتركت جماعة عددها أربعمائة أو أربعمائة وخمسون من الأنصار ، كما يرى أيضا أنه من بين الألف ومائتى شهيد من شهداء حرب اليمامة لا يزيد عدد المهاجرين والأنصار عن ثلاثمائة وهكذا نرى البيانات والمعلومات التى ساقها خورشيد فاروق مليئة بالتضاد والتناقض فى كل السطور وفى كل الصفحات .

يريد المستشرقون ومن والاهم فى الهند من مثل خورشيد أحمد فاروق ، أن يثبتوا من خلال حروب الردة أن الإسلام قد راج فى العهد النبوى بين القبائل المركزية فقط ، وأن بقية القبائل فى نجد وتهامة واليمامة لم تدخل الإسلام ، وإن كانت قد قبلت الإسلام فإنما كان ذلك فى الظاهر فقط ، أما قبائل مناطق الحدود فكانت جميعها على غير الإسلام ، وما حدث أصلا كان عصيانا سياسيا لا ردة ، لأنهم لم يسلموا أصلًا ، وهذا العصيان كان يهدف إلى الحصول على الحرية الإقليمية ، والتخلص من سيطرة المدينة ، والتحرر من العبء الاقتصادى الملقى على كاهلها من قبل المدينة ، ولقد أحاط العصيان السياسى بالبلاد جميعها ولم ينج منه سوى بعض المناطق المركزية ، ولم يقم الخليفة الأول بسحق العصيان بحد السيف ، بل أوقع العديد من المظالم الشديدة فى المتمردين وأجبرهم بالقوة على قبول الإسلام .

يفهم من مطالعة التاريخ الإسلامى أن النظريات السيئة لهذه المؤلفات كلها اتهامات خاطئة ، إذ إن جميع العرب قد أسلموا فى العهد النبوى سوى سكان بعض المناطق القليلة للقبائل التى تعيش على الحدود ، ولم تقبل قبائل هوازن ، غطفان (عدا فزارة) ، سليم ، مزينة ، جهينة ، أسلم غفار ، طيىء (عدا عوت وجديلة) خزاعة ، كنانة ، ثقيف ، قريش ، أنصار المدينة الأوس والخزرج أزد ، أزد شنوءة ، عبد قيس ، وتميم (على الأقل ثلاثة فروع) وعدد آخر من القبائل ، لم تقبل هذه القبائل الإسلام فقط وتقيم عليه ، بل إن جميع أفرادها وشيوخها قد ظلوا على الإسلام فى زمان تلك الفتنة ، والقول بأن إسلام هذه القبائل كان إسلامًا ظاهريا أو للعرض فقط أو بسبب من الأسباب الأخرى ، إنما هو بمثابة مزاح على صفحات التاريخ الإسلامى ، لقد سقوا الإسلام بدمائهم فى حروب الردة . ويحاول خورشيد فاروق ومن هم على شاكلته من الأساتذة أن يضعوا هؤلاء الذين ادعوا النبوة فى صف واحد مع رسول الله ﷺ ، بينما يفهم من الروايات أن الذين آمنوا بأقوال أولئك المتنبيين قد عادوا فكذبوا دعواهم تلك ، ولم يبق معهم سوى من جمعتهم بهم العصبية القبلية .

لقد قام أبناء اليمن الذين ترأسهم فيروز الديلمى بالجهاد ضد الأسود العنسى ، وقضوا عليه وسحقوا حركته ، وقامت بعض جماعات قبيلة كل من طليحة الأسدى ومسيلمة الحنفى بالاشتراك فى الجهاد الإسلامى ، لقد كانت هذه فتنة الردة أساسًا ، اشتركت فيها فقط بعض القبائل التى لم تتلق تعليما صحيحا ولا تربية صحيحة .

لقد كان للعوامل الاقتصادية والعوامل السياسية دخل ، إلا أن هذا لا يمكن أن يتطور ليتخذ شكل العصيان ضد الدين ، لقد أرادت بعض الفئات التخلص من أداء الزكاة ، إلا أنها كانت صادقة فى مطلبها هذا ، إذ ستقيم بقية أركان

الدين ؛ لأن هذه الفئات فهمت خطأ أن الزكاة واجبة فقط فى حياة الرسول ، ومصادرنا فيما يتعلق بهذه الفتنة قد حللت الفتنة تحليلا صحيحا حين قسمت المرتدين إلى طبقات ثلاث :

الطبقة الأولى : مانعو الزكاة . أنكرت هذه الطبقة إعطاء الزكاة ، ولم تنكر أى ركن آخر من أركان الدين .

الطبقة الثانية : شملت أولئك الذين تركوا الإسلام وارتدوا .

الطبقة الثالثة : شملت من ادَّعوا النبوة ممن كانوا يحلمون بتحقيق سلطة سياسية فى ظل ادعائهم النبوة .

وفيما يتعلق بدائرة فتنة الارتداد والعصيان ، فيمكن أن تحدد عن طريق منازل الجيوش الأحد عشر التى كان أبو بكر قد أرسلها لقتال مختلف المرتدين والعصاة وقادة القبائل التى ظهر فيها مدعو النبوة . وقام الخليفة الأول نفسه بالاشتراك مع الجيش الذى قام ضد العصاة فى رندة وذى القصة ، وكانوا قد تجمعوا فى مناطق مختلفة هناك ، فى محاولة للهجوم على المدينة إن وجدوا فرصة لذلك ، أما باقى الجيوش فقد قام خالد المخزومى لمحاربة جيش بقيادة طلحة الأسدى كما أرسل عكرمة بن أبى جهل المخزومى وشرحبيل بن حسنة الكندى لقمع قبيلة بنى حنيفة باليمامة الذى كان رأسها هو مدعى النبوة مسيلمة الكذاب ، كما أرسل عمرو بن العاص لقتال المرتدين من قبائل قضاعة وكلب ، وأرسل طريفة بن حاصر السلمى لمواجهة بنى سليم ، كما أرسل خالد بن سعيد الأموى لقتال المرتدين فى المناطق الغربية من حدود الشام ، بينما أرسل مهاجر ابن أبى أمية إلى اليمن ، وأرسل السويد بن مقرن إلى تهامة اليمن ، وأرسل عرفجة ابن هرثمة إلى مهرة ، وأرسل حذيفة بن المحصن الأزدى إلى عُمان وعلاء بن حضرمى إلى البحرين .

يثبت من التحليل السابق أن المناطق الحدودية فقط هى التى أججت نيران

الردة ، أما العرب الوسطى فقد ارتد منها منطقة أسد وطيئ فقط ، وهناك حقيقة هامة أن من بين القبائل المرتدة عددا كبيرا جدا من المسلمين المخلصين الذين حافظوا على عقيدتهم بدمائهم وقت المحنة وأعلنوا الجهاد ضد المرتدين من قبيلتهم بعد قدوم جيوش الإسلام ، ولهذا فمن الخطأ أن نقول بأن الردة أو الارتداد أو العصيان شمل العرب كلهم . والنظرية الأكثر خطأ هى تلك التى تقول بأن الخليفة الأول قد نشر الإسلام بحد السيف حتى أدخل العرب فى الإسلام . وإنه ليثبت من خلال دائرة الإجراءات العسكرية والنطاق الذى تناولته العمليات العسكرية أنه لا يمكن إجبار العرب عن طريق القوة بقبول الإسلام ، وتثبت الوقائع التاريخية أن عددا من العصاة والمرتدين قد دخلوا دائرة الإسلام باقتناع ثم إن الإسلام لا يقول أبدا بإجبار الناس بالقوة على اعتناق الدين . ومن هنا فإن التحليل التاريخى الذى يحاول المستشرقون والمؤرخون الجدد نشره بين الناس إنما بنى على روايات خاطئة وأدلة ممسوخة واستنتاجات فاسدة .

الفتوحات الإسلامية
الدوافع والأهداف

كما قام المستشرقون والمؤرخون الجدد بالبحث عن الدوافع والأهداف الاقتصادية للفتوحات الإسلامية فى العهد النبوى ، فإنهم يقومون أيضا بالإشارة إلى الأسباب والعوامل الاقتصادية والعسكرية والعوامل الأخرى التى أدت إلى الفتوحات الإسلامية للبلاد المجاورة كالعراق والشام ومصر وإيران وغيرها فى عهد الخلافة الرشيدة ، إلا أن الحكاية الأعجب هى التى نسمعها منهم ، وهى بداية الفتوحات الإسلامية بعد حروب الردة .

يرى أكثر المؤلفين أنه فى زمان حروب الردة تحولت الدولة الإسلامية كلها إلى معسكر للجيش ، لأنه كان من الضرورى إخضاع الجزيرة العربية كلها من جديد لسيطرة المدينة المنورة ، ولهذا استلزم الأمر إجراءً عسكريا قويا . وعلى نطاق واسع حتى يمكن أن يجعل الجزيرة العربية كلها تابعة للحكم الإسلامى . وكان من اللازم توجيه المسلمين بل القوى العسكرية للقبائل العربية التى تفوقت بما لها من أسباب مختلفة إلى خارج الجزيرة العربية ، وأصبح البحث عن سبيل أمرًا ضروريا ، وإلا عادوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام من حروب داخلية ، ولهذا فكر الخليفة الأول فى أن تستفيد الأمة الإسلامية من هذه القوة العسكرية الفائضة ، وبدلا من أن تستخدم فى أمور غير نافعة رأى توجيهها إلى حدود العراق ثم الشام وفتح جبهات قتالية هناك .

ويرى « فيليب حتى » ومن يوافقه فى رأيه من المؤلفين أن الخليفة الأول لم تكن لديه فى البداية أية خطة محددة مدروسة لفتح المناطق المجاورة ، والخطة تتلخص فى القيام – عن طريق مهمات بسيطة تتركز على النهب والسلب والإغارة – باستنفاذ القوة العسكرية للعرب من ناحية والحصول على أموال الغنائم من ناحية أخرى ، وبعد فتح تلك المناطق ثم ضمها إلى الدولة الإسلامية ، وهو ما لم يكن متصورا لذاته من تلك المهام ، ولكن حين انتشرت هذه الإرساليات العسكرية بسرعة كبيرة ، خرج زمام المحاربين من يده ، وحين بدأت الفتوحات فجأة تم وضع خطة منظمة لها ، وهو ما نتج عنه قيام الدولة العربية .

إن دوافع الفتوحات الإسلامية أو نظرية بدايتها تلك وعرضها بهذا الشكل إنما هو خليط من الصحة والخطأ ، فصحيح تماما أن الدولة الإسلامية فى البداية لم تضع خطة منظمة للفتوحات ، كما أنها لم تكن ترغب فى مَدِّ حكمها ونشر سلطانها على البلاد المجاورة ، إلّا أن تحليل أسباب بدايتها هو تحليل خاطىء .

لقد وضح من التحليل السابق لحروب الردة أن الدولة الإسلامية لم تتحول إلى معسكر أو مخزن للسلاح . وتحليل قوتها العسكرية يوضح أن عدد الجيش الإسلامى كان لا يزيد عن ١٥ أو ٢٠ ألفًا ، ثم إن من بينهم جنود معظم المهمات ، وهو ما أضاف إلى القوة العسكرية . فمثلا إن الزيادة فى عدد جيوش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة كانت نتيجة لاشتراك جند المهمات ، وبعدها فإن جنود القائدين الأخيرين قد زادوا فى القوة العددية للمهمات والمرسلة إلى العرب الجنوبيين ، وقد تجاهل المستشرقون هذه الحقيقة ، وهى أنه فى العهد النبوى لم يكن هناك جيش مستقل منظم ، هذا بالإضافة إلى أن أكثر المجاهدين المشاركين فى المهمات كانوا قد عادوا إلى مناطقهم أو إلى قبائلهم بعد انتهاء تلك المهمات .

وتوضح بعض الروايات والمراجع والمصادر أنه فى الدور الأول للخلافة الرشيدة على وجه خاص ، وفى الفترات التالية بوجه عام ، ظهرت قضية نقص عددالجنود ، وقد تعرضت بعض الجبهات لأزمات شديدة نتيجة هذا النقص . وقائد بنى بكر بن وائل المثنى بن حارثة الذى يتهمه المؤرخون بتهمة قيامه بالهجوم العسكرى على جبهة العراق ، اضطر إلى أن يكتب عدة مرات إلى المدينة بسبب نقص الجنود ، وفى النهاية اضطر إلى أن يأتى إلى المدينة . ولو سلمنا بنظرية الإرساليات الحربية ، واستنفاد الطاقة العسكرية الزائدة ، فإن النتيجة المنطقية التى نستخلصها هى ألا يجب أن تكون هناك شكوى من قلة عدد القوة العسكرية ، وكان يمكن السيطرة على هذه المشكلة بسهولة . ثم إذا كان الهدف هو استنفاد الطاقة العسكرية الزائدة ، فقد كان يكفى فتح جبهة واحدة ، إلا أن فتح جبهتين فى وقت واحد ، ومواجهة مشكلة قلة عدد الجند لا يمكن أن يكون دليلا على بعد النظرة العسكرية ، وهكذا فهذه النظرية بأكملها فريسة للتضارب ، ولا تؤيدها الوقائع التاريخية أبدًا . صحيح أن بداية

الفتوحات الإسلامية كانت مع حروب الردة ، غير أن لها صورة أخرى غير تلك الصورة .

لقد قام العديد من المرتدين والمتمردين باللجوء فقط إلى المناطق الخاضعة للعراق وإيران ، بل بدأوا أيضا فى الإغارة على المناطق الإسلامية ، وكانت الحكومات هناك تعضدهم وتساندهم مساندة واضحة ، وتقوم بحمايتهم ، وفى تلك الحالة أصبحت جبهة العراق أشد خطرا . ومن الواضح أن القبائل الموالية للمدينة كانت ترد على الغارات الموجهة ضد حدودها . وقد طلب المثنى بن حارثة الشيبانى الإذن له بالهجوم على المناطق المغيرة ، وذلك للوقوف فى وجه تلك العمليات العدوانية على حدود الدولة الإسلامية ، ولم يسمح له فى البداية ، وفى النهاية وحين عرف الخليفة الأول بخطورة الموقف سمح له باتخاذ الإجراءات المناسبة ، وقد وجد خالد بن الوليد فرصة فى حروب ردة اليمامة ، فصار فى ركابه فى العودة ، وصدر الحكم بالتقدم ناحية الحدود العراقية لمساعدة المثنى ومن معه من المجاهدين ، وهكذا بدأت الفتوحات على الجبهة العراقية .

وكانت هذه تقريبا هى الظروف التى ظهرت على جبهة الشام ، وكرد فعل لمهمة أسامة قامت الحكومة البيزنطية بالإعداد للهجوم على الدولة الإسلامية ، ثم نتيجة لحروب الردة قام عمرو بن العاص وخالد بن سعيد بسلسلة من الإجراءات التأديبية ضد المرتدين والبغاة من قبائل قضاعة وكلب وغيرها ، ونتيجة لذلك بدأ الاصطدام مع القبائل الموالية للإمبراطورية البيزنطية . وبناء على المخاطر المتوقعة من جانب الروم قام أبو بكر الصديق بالتشاور مع الصحابة الكرام بإرسال أربع مهمات صغيرة لدرء أبواب هذه المخاطر بقيادة يزيد بن أبى سفيان الأموى ، وأبى عبيدة بن الجراح الفهرى ، وشرحبيل بن حسنة الكندى ، وعمرو بن العاص السهمى ، ولم يزد عدد جندهم مجتمعين على ٢٧ ألفًا ، ولم يكد هؤلاء يبدأون مهماتهم حتى قام هرقل إمبراطور

البيزنطيين – وكان فى مدينة حمص آنذاك – بإرسال جيش جرار لمواجهة المسلمين ، وأصبح الوضع على جبهة الشام دقيقا للغاية ، فأمر أبو بكر خالد ابن الوليد بالتوجه إلى جبهة الشام على الفور ، لأنه لم يكن لديه جيش بالمدينة المنورة من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم تتخذ الإمبراطورية الإيرانية أية إجراءات عسكرية بصورة منظمة حتى ذلك الوقت ، ونتج عن ذلك فتح باب الحرب بصورة كاملة على مصراعيه على جبهة الشام ، وقد قامت الحكومة الإيرانية بإعلان الحرب بصورة منظمة ، ففتحت بذلك جبهة ثانية ، وهكذا بدأت الفتوحات الإسلامية .

وهناك عدة أسباب تفسر ما مضت عليه الفتوحات الإسلامية من سرعة ، وما كانت عليه من اتساع وفتوحات فى وقت واحد . من بين هذه الأسباب ، الحالة السياسية للإمبراطوريتين الإيرانية والبيزنطية المتدهورة ، بالإضافة إلى سوء وفساد الوضع الاقتصادى والتمزق والتفتت الاجتماعى والدينى ، فقد بدأت عظمة هاتين الإمبراطوريتين فى الزوال ، وهى العظمة التى كانتا عليها فى زمان قسطنطين وخسرو برويز ، ونتيجة لما أصابهما من انحطاط وتدهور أصبحتا عاجزتين عن مواجهة الإمبراطوريات القوية ، ولكن على الرغم من كل هذا فقد كانتا أقوى إمبراطوريات العالم حينذاك ، وكانتا أفضل من العرب من ناحية المهارة الحربية والعسكرية وكثرة الجند والسهولة والانسياب فى ميدان الحرب ، وكذلك من ناحية إعداد وتجهيز الجند بالأسلحة والعدة والعتاد ، وكذلك فى جميع الإدارات والأقسام الأخرى المتعلقةبالجيوش ، ومع هذا فيرى بعض المؤرخين أن التكتيك الحربى للعرب تفوق على ما لدى الروم والإيرانيين ، فقد استخدم العرب الأسلوب الحربى المؤثر فى ميدان غرب آسيا وشمال أفريقيا ، وكانت لهم براعة ومهارة فى ركوب الخيل والجمال ، وهو ما لم يتوفر أبدا لدى الروم .

ومن الممكن أن يكون « التكتيك » العسكرى للعرب قد تفوق فى جهة

ما ، أو فى مرحلة ما من مراحل الحرب ، إلا أنه لم يثبت بأى حال من الأحوال تفوق العرب فى المجالات الحربية التى سبقت الإشارة إليها ، وعلى الأقل فإن مصادرنا التاريخية تثبت وتؤكد تماما تفوق التكتيك العسكرى للجيوش المعادية . وهناك سبب آخر يقول بأن نهاية إمارات لخم وغسان ، وهى الإمارات التى كانت تقوم بدور Buffer States ، أى الدول المصدة أو التى تتلقى الصدمات الأولى بين العرب والإمبراطوريات المجاورة ، مما سهل للعرب إحكام السيطرة على المناطق التى دارت فيها المعارك . والقول بأن العرب كانوا ينظرون بطمع إلى تلك المناطق يتعارض مع الحقائق التاريخية ، وهو قول يزيد عليه قول آخر بأنهم تفوقوا فى تلك المناطق لأنها مناطق صحراوية ، مع أن الجيوش الإسلامية خاضت معارك شرسة جدا على الجبهتين العراقية والشامية ، وتحملت أحيانا جراح الهزيمة ، والضغط المستمر من قبل الجيوش المعادية ، ثم هذه حقيقة أن جوا عسكريا وسياسيا لم يكن قد بدا على الجبهتين .

وهناك سبب من أسباب الفتح ، وهو أن أهل البلاد المفتوحة كانوا يئنون تحت ثقل المتاعب الاقتصادية والسياسية وغيرها ، فقد اعتبروا الفاتحين المسلمين منقذيهم مما هم فيه ، فرحبوا بالإجراءات العربية ، وتعاونوا مع الجيوش العربية ، وهناك سبب آخر مكمل لجملة هذه الأسباب ، فقد قيل لقد ذاقت القبائل العربية ذاتها حلاوة النصر الذى تحقق من خلال الفتوحات العربية ، وهى القبائل التى كانت تعيش فى المناطق الحدودية ، ولهذا تعاونت مع العرب الفاتحين من أجل العصبية القبلية والعرقية والفوائد المادية .

وليس بالمصادر التاريخية ما يؤيد هذين السببين أيضا تأييدا كاملًا ، فقل أن تجد فى مصادرنا أمثلة وشهادات تؤيد هذا الأمر ، بل لا يوجد أبدا فى بعض الأماكن ما يؤكد أن السكان المحليين قد أيدوا الجيوش الإسلامية ، بل هناك شهادات واقعية فعلية تدل على عكس ذلك ، وهو وصول طلبات عديدة

من الجبهات للمدينة المنورة طلبًا للمدد والعون ، وفى معظم الأوقات كان هذا العون مجرد عدة مئات أو ألف جندى ، وفيما يتعلق بمسألة الترحيب العام بالفاتحين المسلمين من جانب السكان فهذا أمر صحيح ، إلا أنه من الطبيعى بل من الشائع ألّا يشترك السكان المدنيون فى القتال ، وبلاشك أمد هؤلاء السكان المسلمين بالعون المعنوى ، وهو ما حُرمه القادة والجنود الرومان والإيرانيون . ومن الواضح أنهم تأثروا كثيرا بالأخلاق الإسلامية .

لقد حاول فيليب حتى أن يستطلع ويحلل الفتوحات الإسلامية وكأنها صدام بين الشرق والغرب ، ويكتب ناصحا بوجوب تحليل الفتوحات الإسلامية بتلك الخلفية ، إذ إن الشرق الأوسط القديم كان توّاقا إلى استرجاع مناطقه المحتلة ، والمشرق تحت تأثير الإسلام بدأ يرى حلمه القديم من جديد ، فأراد أن ينزع عن نفسه رداء التسلط الغربى الذى استمر لآلاف السنوات . وهو يقول : إن الفتوحات الإسلامية كانت أيضا عاملا من عوامل الاستغلال الإقليمى ، وهذه النظرية الخاصة بالفتوحات الإسلامية هى بالمصطلح الحديث النظرية التفسيرية ، إلا أن زمان الفتوحات الإسلامية وهو القرن السابع الهجرى لم يشهد تصور الشرق والغرب كما يريد المؤرخ المذكور تفسيره ، كما أن الفاتحين المسلمين والحكام المسلمين لم يرد أبدًا على أذهانهم التصور القائل بتخلص الشرق من تسلط الغرب والاستقلال الإقليمى واسترجاع السلطة الضائعة . والحقيقة أن السبب المجرد للضغط على أهمية هذه الأسباب والعوامل والتأكيد عليها مرة بعد مرة ، إنما يهدف إلى إخفاء العامل الأساسى للفتوحات الإسلامية .

والواقع أن السبب الأساسى لسرعة الفتوحات الإسلامية وتماسكها ، وهو ما لا يريد المعاندون والمخالفون من أعداء الإسلام الاعتراف به ، هو الحماسة الدينية لدى حملة الإسلام ، وما كان لذلك من نتائج ، ويعترف مؤرخ غربى

بذلك فيقول : « بالإضافة إلى العوامل والدوافع المساعدة السابقة ، فإن سبب هذا النجاح الساحق والتوفيق الباهر يكمن فى الإسلام الذى بدّل العرب البدو « المتوحشين » الذين لم يكن يجمعهم نظام إلى جيش وفىّ منظم : ملتزم بالضبط والربط ، متمدن ومتحضر .. إنه الإسلام الذى ملأ قلوبهم ، والإحساس الذى سيطر عليهم بأن القتال جهاد ينالون أجره رضا من الله ومغفرة ، ومال الغنيمة هو إنعام مادى دنيوى دليل على مرضاة الله .

ومع أن هذا الاعتراف يضم فقرة كالسم فى العسل وهى « القتال ضد أتباع الأديان الأخرى جهاد » ذلك لأن المسلمين قاموا بالجهاد للقضاء على الظلم والبربرية والإفساد فى الأرض ، لا لمجرد قتال أتباع الأديان الأخرى ، وهو ما يتضح حقيقة للعيان ، وفيليب حتى ، اضطر إلى الاعتراف بالحقيقة فقال : « وكأن العرب الذين حرموا من الكفاءة والديانة قد تحولوا بعد وفاة النبى بسحر ساحر إلى أبطال عسكريين ومثل هؤلاء الأبطال لم نكن لنفتقدهم فى مكان واحد من ناحية العدد أو الكفاءة ، فخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ممن قاموا بمهمة فتح إيران والعراق والشام هم أمثلة نادرة جدا وعظيمة فى تاريخ الحروب العالمية ، وقد تفوقوا على ما قام به نابليون وهنى بال وحتى الإسكندر الأكبر » .

وفى هذا الاعتراف وردت جملة بريئة فى ظاهرها تحمل السم فى باطنها وهى « بعد وفاة النبى » . والحقيقة أن المد الإسلامى السريع كان نتيجة منطقية وضرورية لتعاليم رسول الله ولتربيته الحكيمة لصحابته وللمسلمين ، ولما تم قبلا من إخضاع الجزيرة العربية كلها للإسلام ، ومن بعده قام الصحابة الكرام وبتأثير من أعمال رسول الله وتوجيهه فتحوا البلاد المجاورة لنشر كلمة الحق .

أهداف الفتوحات :

أكبر هجوم على الفتوحات الإسلامية هو الهجوم على سلسلة أهدافها ، فقد

أقر « فيليب حتى » أن هدف الحملات الأول [الغزوات] على قبائل الحدود كان الغزو والإغارة والرغبة فى التمتع بالدعة واللذات ، والمؤرخ المذكور فى بحثه عن أهداف الفتوحات يقدم وجهة نظره فى ثلاث نقاط :

الأولى :وجهة النظر التى تساير وجهة نظر علماء الإسلام ، والقائلة بأن الفتوحات الإسلامية كانت دينية خالصة .

الثانية : وجهة النظر التى تساير وجهة النظر النصرانية ، وهى أن المسلمين الفاتحين قاموا بتخيير الأمم المفتوحة بين الإسلام أو السيف ، أى أن وسيلة الإسلام فى انتشاره هى السيف .

ووجهة النظر الثالثة يعرضها هو نفسه ، وهى أن الجزية والخراج كانا أكثر محبة لدى المسلمين الفاتحين من غيرها .

وبعد أن يقدم استشهاده بالآية التاسعة من سورة التوبة[1] يكتب : « نتيجة لضغط الظروف ، ثم وجود بديل ثالث ، كان على الزردشتيين والبربر والترك اختياره (أى الإسلام) فلقد كوّن الإسلام لديهم فكرة حربية جديدة ، ووجهة نظر اجتماعية سهلة ، ومع أن الإسلام قام بدور لا مثيل له فى توحيدهم ، إلا أن هذا لا يكفى لتوضيح وشرح الفتوحات العربية بطريقة كاملة ، وبدلا من الحماس الدينى فإن الضرورات الاقتصادية قد تفوقت لدى العرب على الحرب ، فمشكلات الصحراء كانت سببا فى هجومهم على الهلال الخصيب ، حتى ينالوا الراحة والدعة ، ومن الممكن أن تكون فكرة الذهاب إلى الجنة قد ظلت تداعب قلوب بعض الناس ، إلا أن الهدف الأساسى كان الثروة والحصول على الفوائد المادية .

---

(١) ﴿ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ التوبة ٩ . المترجم .

ويدعى فيليب حتى أن بيانات وتصريحات ليون كيتانى ، وبيكر وغيرهما من المؤرخين الجدد ، وأن المؤرخين العرب القدامى قد أهملوا تماما هذا الجانب الاقتصادى للفتوحات الإسلامية ، وهكذا ينقل نص خطاب الخليفة الأول من فتوح البلدان للبلاذرى ، والذى كتبه لعرب مكة والطائف واليمن ونجد والحجاز ، يدعوهم للمشاركة فى الجهاد الإسلامى دافعًا إياهم مشجعا لهم بما قد يحصلون عليه من أموال الغنيمة . « ولم يثبت سوى بيت من الشعر عن شجاعة القائد الإيرانى رستم يخدم به مفاهيمه وأهدافه » . ولقد ترك بعض المؤرخين النظرية القائلة بالأهداف الاقتصادية الخالصة ، ولاشك أن بعض المؤرخين المتصلبين لا يزالون يتعلقون بها ، والسبب فى ذلك هو أن هذه النظرية مبنية على مزاعم عديدة وغير مقبولة ، لأنها أولا تقرر أن الفتوحات الإسلامية هى عبارة عن حلقة من سلسلة الهجرات السامية المغرقة فى القدم ، وبناء عليه وبعد الإسلام حدثت زيادة كبيرة بين السكان العرب وبسرعة هائلة مما مثّل بدوره ثقلا اقتصاديا ، وجعل معيشتهم تواجه صعوبات متنوعة ، وبسبب هذا اتخذت الهجرة العربية السامية الجديدة شكل الفتوحات . وقد أبطل المؤرخ فرانسسكو جبرائيل النظرية القائلة بالضغط السكانى الذى نتج عنه هجرة اقتصادية لأنه لا يوجد إثبات يدل على الزيادة فى السكان منذ ذلك التاريخ ، وبعد مجىء الإسلام ، بل أكثر من هذا يقول إن العرب الفاتحين طوال فترات فتوحاتهم الطويلة لم يفرحوا أو يُسروا بالسكن بالمناطق كثيرة السكان ، أو يفرحوا بالإقامة فى المناطق التى فتحوها ، وكانوا بعد الفتح يفضلون فى معظم الأحيان العودة إلى مناطقهم الصحراوية ، ثم حتى زمان خلافة عمر ظلت سياسة الحكومة ألّا تسمح للعرب بالإقامة بالبلاد المفتوحة ، وطبقا لقول جبرائيل : إن بين الصحراء برمالها والعرب محبة قديمة ، استمرت حتى مع العهد الأموى ، لدرجة أن خلفاء بنى أمية كانوا يفضلون بناء قصورهم فى الصحراء والبادية وكانوا يقضون فيها كثيرا من أوقاتهم .

و « فيليب حتّى » الذى سبق ذكره قدم ثلاثة أمثلة فقط يؤيد بها نظرية العامل الاقتصادى ، بينما يمكن تقديم آلاف الأمثلة ضده من التاريخ الإسلامى . والخطاب الذى نقله عن أبى بكر الصديق فيه فى البداية حَضٌّ للمسلمين على الجهاد الإسلامى ، ثم قرر أن أموال الغنيمة هى جائزة وإنعام ، وهو ما تغافل عنه المؤرخ ، وهكذا قدم بطريقة ساخرة ما جاء عن رستم القائد الإيرانى ، ولم يقدم رد وجواب المبعوث المسلم الذى يتضح منه أن الجهاد هو الهدف المطلوب لا الغنيمة ، فقد كان هدف الفتوحات فى المقام الأول هو الجهاد الإسلامى ، وهو ما بدأ المستشرقون يعترفون به أيضا ، وعلى رأسهم جبرائيل ، وكما قال فإن الدوافع والأهداف الأخرى كانت دوافع وأهدافًا ثانوية ، فإذا كان عامل الإسلام والدين هو منتهى هدف هذه الفتوحات ، فإن هذه السرعة التى شهدها الفتح الإسلامى ، وهذا التماسك وهذه الصلابة لا يمكن أبدًا أن تكون نتيجة لأسباب أخرى غير نشر الإسلام لأسباب تتعلق بالفوائد الاقتصادية وما إلى ذلك ، ولا أحد ينكر أهمية العوامل الأخرى بالإضافة إلى الإسلام والجهاد ، ولكن طبقا لقول أحد المستشرقين ، إن الجهاد فى سبيل الله للحصول على الجنة فى الآخرة هو الأساس ، وليس الحصول على الأجر الدنيوى كان أصل الدوافع والأهداف التى نتجت عنها الفتوحات الإسلامية .

نوعية الفتوحات الإسلامية :

لقد كان الهدف الأساسى للفتوحات الإسلامية هو إعلاء كلمة الله ، وبصورة أساسية فإن الدولة الإسلامية كانت تهدف إلى تبليغ رسالة الله إلى غير المسلمين عن طريق الدعوة والإرشاد ، كما حدث فى العهد النبوى فى شبه الجزيرة العربية ، ولو أن هناك فرقا بين العصر المكى والعصر المدنى فى زمان النبى ﷺ ، فهو أنه فى العصر المكى تم نشر الإسلام بأسلوب التبليغ ، ولكن فى العهد المدنى حين سُدَّت الطرق وأغلقت أمامه ، تم تحقيق

نفس الهدف فى ظل الفتح والنصر ، ولو سمحت الظروف لما اضطرت الدولة الإسلامية لإشهار السيف فى وجه أحد ، ولكن حين قام الكفر بسل سيوفه ضد الإسلام اضطر الإسلام أيضا إلى رفع السيف ، وهذه هى أصول الجهاد الإسلامى التى لا تقبل تعديلًا أو نسخًا .

إن استخدام كل طريقة مشروعة فى سبيل الحفاظ على الإسلام وإعلاء كلمة الله ، واستخدام التبليغ والإرشاد فى حالات السلم ، واستخدام القوة والشوكة والفتح والنصر على الجبهات لا يحتاج بالضرورة إلى تقديم أى اعتذار .

ولنقارن فتوحات فاتحى العالم مثل الإسكندر وجنكيز وهنى بال ونابليون وغيرهم بالفتوحات الإسلامية . إن أهمية أهدافها ومقاصدها تقل بل تصغر أمام أهمية الفتوحات الإسلامية ، ولاشك أن فاتحى العالم هؤلاء قد سيطروا على العالم فى معظمه ، إلا أن سيطرتهم كانت مجرد سيطرة وتحكم فى شعوب العالم المفتوحة ، لا امتلاكا للعالم ، وهناك فرق بين السيطرة والامتلاك ، لقد أصابوا قلوب الناس بسيوفهم ، ثم لم يضمدوا جراحها ، لكن الفاتحين المسلمين حرروا الإنسانية من عبودية الإنسان ، ورفعوا عن كاهل الناس الثقل الاقتصادى ، وأعطوا البشرية الحرية الدينية وأقاموا حكم القانون ، وبعد الفتوحات أقاموا الأمن والنظام ، وعملوا على بناء ورقى البلاد المفتوحة ، كما أصلحوا جميع جوانب الحياة وطوروها ، عملوا على رقى التجارة والزراعة والاقتصاد والمجتمع والثقافة والتمدن ، وقد شهدت جميع جوانب الحياة فى البلاد المفتوحة ازدهارا ورخاء وقام المسلمون بإضاءة قناديل العلم والمعرفة ، أعطوا ما عندهم لأهل البلاد المفتوحة ، كما أخذوا ما عند هؤلاء من علم وفضل .

لقد أرست الفتوحات الإسلامية أسسا جديدة للثقافة والحضارة من أهمها : الحاكمية الإلهية ، المحبة النبوية ، العظمة الإنسانية ، وهذا هو السبب الذى جعل أهالى البلاد المفتوحة يرحبون دائما بالفاتحين المسلمين ، لأنهم رأوا فيهم منقذى

البشرية ، وبالتدريج وبدون أى جبر أو إكراه دخلوا فى دين الله أفواجا ، تعلموا العربية ، وقبلوا الثقافة الإسلامية لدرجة أنه لم يكن هناك فرق بين البلاد المفتوحة فى عهد الصحابة ومركز الإسلام ، حيث انتشر نور الإسلام فى جميع البلاد التى تمثل اليوم العالم الإسلامى كله .

انتخاب الخليفة الثالث :

يوجه بعض محبى النقد ، نقدا إلى مجلس انتخاب الخليفة الثالث ، وهو المجلس الذى شكله عمر رضى الله عنه ، ويثيرون حوله الشبهات من الناحية التاريخية ، إلا أن الواقعة المسلم بها فى التاريخ الإسلامى هى أن الخليفة الثانى عمر رضى الله عنه قد أقام قبيل وفاته ديوانا للمرشحين للخلافة يتكون من ستة صحابة أجلاء هم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وأسند إلى عبد الرحمن بن عوف مسئولية أن يتولى رئاسة عملية انتخاب الخليفة الجديد . ومن تحليل الروايات يفهم أن الثلاثة الآخرين قاموا بسحب أسمائهم من الترشيح لصالح الثلاثة الأوائل بناء على رأى عبد الرحمن بن عوف ، ثم سحب عبد الرحمن نفسه وأسند إلى نفسه فقط مسئولية المساعدة فى انتخاب الخليفة ، وكانت الأغلبية العظمى من الأمراء والرؤساء والصحابة الكرام بالمدينة فى صف عثمان ، ولهذا أصدر عبد الرحمن قراره فى صالحه ، وهكذا تم اختيار عثمان خليفة رسول الله الثالث .

ويقرر سيد أمير على ، وهو يمثل طبقة من مؤرخى المسلمين ، أن قرار عمر تشكيل ديوان مرشحى الحكومة كان قرارا خاطئا ، وقائما على مجرد عصبية دينية ، ويقول – وهو حزين – إن عليًّا كان يمكن أن يكون خليفة بسهولة من بعده ، إلا أنه لم يفعل ذلك ، فأعطى فرصة لتآمر الأمويين على الاستيلاء على الحكم والسلطة ، لأنهم كانوا أصحاب أثر وسلطة ، ليس فقط

فى المدينة ، بل كانت بينهم عداوة سابقة مع بنى هاشم أيضا ، ولهذا فقد حُرِم علىّ من حقه المشروع ، وفتح لقرن من الزمان الباب للظلم والقهر الأموى . وهو يرى أن خلافة عثمان كانت دمارًا ووباءً على الإسلام . وهذا التحليل الذى يعرضه المؤرخ المذكور إنما يخفى وراءه تعصبا فكريا وعقديا ، وإلا فالتاريخ الإسلامى يرشدنا إلى أن عهد خلافة عثمان رضى الله عنه كان عهد رقى وازدهار .

ثم يأتى من ناحية أخرى خورشيد أحمد فاروق فلا يترك شخصية من الشخصيات دون لوم أو تجريح ، وذلك فى معرض حديثه عن انتخاب الخليفة الثالث ، فهو يتهم الصحابة الستة بأنهم متآمرون ، وأنهم يحبون الدنيا ويحبون الرئاسة ، وكان من وراء تآمرهم على الحكومة والرئاسة الحصول على فوائد مادية ، فقد اتهم عبد الرحمن وسعدا بالتحيز ، واتهم عليًّا بالتآمر ضد الخليفة ، كما اتهم أيضا عليًّا بالتهرب من إعلان بيعته لعثمان وأنه أجبر فيما بعد على أن يبايعه[1] ، كما اتهم عمار بن ياسر باتهامات كثيرة ، منها مخالفته ومعارضته للخلافة العثمانية وأنه « أمات الإسلام » وغير ذلك من تعبيرات مشينة . وقد قام فاروق بتوجيه اتهاماته بمهارة فائقة فقدمها كلها فى رداء نقله عن الروايات ، ومعظم رواياته روايات شيعية ، وكذلك عن ابن أبى حديد ، أو أنه قام بنفسه بتفسير معنى روايات لم ينقلها وعبر عنها هو كما يحلو له ، واختار المؤرخ المذكور الأسلوب المتعصب المنحاز ، فقام بنقل مثل هذه الروايات التى تتعلق بمشاجرات الصحابة الكرام ، إلا أنه تعمد ألا يذكر جميع تلك الروايات التى تشهد على سمو عملهم ومسلكهم ، وتشهد على إخلاصهم وإيمانهم ، ويكفى أن نورد مثالا واحدا ، وهو اتهامه لعلى بأنه لم يبايع عثمان رضى الله عنه ، وبعد مدة ، وبعد ضغط من الصحابة اضطر علىّ إلى مبايعة عثمان ، بينما

---

(١) انظر ترجمتنا لكتاب الثورة الإيرانية فى ميزان الإسلام الصادر عن دار الصحوة بالقاهرة . المترجم .

الصحيح وما ورد فى الروايات المسندة أن عليا كان أول من بايع عثمان رضى الله عنه بعد اختياره خليفة ، والحقيقة أن خورشيد أحمد فاروق ومن على شاكلته من المؤرخين يريدون أن يجعلوا التاريخ الإسلامى كله تاريخ صراع طبقى ، حتى يمكن أن يثبتوا أن أثر الإسلام وأثر الصحبة النبوية لم يكن أبدا له وجود ، أو أنه لم يثبت مطلقًا أن هناك أثرا .

التآمر على الخلافة الإسلامية

لقد تعرض عثمان رضى الله عنه لقدر من الطعن واللعن والذم واللوم بطريقة لم تتعرض لها أية شخصية فى التاريخ الإسلامى ، وكان الأمر بالنسبة للأعداء والمعارضين بسبب خططهم النجسة ، ومؤامراتهم الرامية إلى الطعن فى شخصيته الكريمة ، وإذا كان لنا من أسف فإنه على قلة فهمهم ، فقد سقطوا فى شبكة ما يروجه أعداء الإسلام عن شخصية عثمان .

ومن بين المؤرخين المسلمين طبقة مخلصة مؤمنة ، إلا أنها بسبب قصورها فى التحليل الصحيح للتاريخ قبلت الكثير من الاتهامات الخاطئة الموجهة ضد عثمان واعتبروها وقائع تاريخية صحيحة ، فاتهموه بها ، وقاموا بمسخ هذا الباب من التاريخ الإسلامى بسبب تلك المزاعم التى ارتسمت ورسخت فى عقولهم وأفكارهم وقلوبهم .

وهناك عدد كبير من أولئك الناس الذين قاموا بتحليل خلافة عثمان تحليلا غير تاريخى وغير علمى ، وذلك بسبب عصبية عرقية أو اعوجاج فكرى أو قصور ذهنى ، والحقيقة أن سلسلة الاتهامات الموجهة ضد عثمان إنما نبعت من تلك المؤامرة التى أحيكت حول الصحابة الأمويين عامة والخلفاء الأمويين بصفة خاصة . وسوف نحاول تحليل هذه المؤامرة بشىء من التفصيل لأنها تهم المهتمين بشئون التاريخ الإسلامى .

عزل وتعيين العمال فى عهد عثمان :

يقسم هؤلاء المعترضون مساوئ عهد خلافة عثمان (١٢ سنة) رضى الله عنه بصفة عامة إلى قسمين :

القسم الأول مضى فيه الخليفة الثالث يدير شئون الخلافة على النهج الصحيح ، وكان هذا العهد من الخلافة يمضى على نهج النبوة .

القسم الثانى انحرف فيه عن السنة النبوية وسنة الشيخين ، وأتى بتصرفات خالف فيها حتى أكابر الصحابة ، وفى النهاية وبسبب كل هذا حدث العصيان والتمرد ضده ، وهو ما انتهى بمأساة استشهاده . ومع أن بعض المؤرخين لم يثيروا قضية تقسيم زمان خلافته إلى تلك الفترتين إلا أنهم قاموا بترديد خُرافة الأعمال الصحيحة والأعمال الخاطئة ، وقد وجهت العديد من التهم إلى عثمان رضى الله عنه ، وفيما يلى عرض وتحليل لهذه الاتهامات فى ضوء الروايات الإسلامية الصحيحة حتى نضع أمام القارىء الصورة التاريخية الصحيحة واضحة جلية .

أكبر اتهام وجه إلى عثمان رضى الله عنه أنه فى البداية ظل على عهوده مع الصحابة الكرام ، إلا أنه تدريجيا بدأ فى عزل أكابر الصحابة ، ومن بينهم عمرو ابن العاص حاكم مصر ، وسعد بن أبى وقاص حاكم الكوفة ، وأبو موسى الأشعرى حاكم البصرة ، والمغيرة بن شعبة حاكم البصرة ، وعبد الله بن الأرقم القائم على بيت المال بالمدينة ، وعبد الله بن مسعود القائم على بيت المال بالكوفة ، مما نتج عنه – كما يقول المؤرخون – هيجان شديد بين كبار الصحابة والعامة أيضا .

والاتهام الثانى يتعلق بهذا الاتهام ؛ وهو أن الخليفة الثالث قام بتعيين شباب قريش فى مناصب كبار الصحابة ، وبخاصة الشباب من أقاربه ممن لم يؤدوا أى عمل يستحقون به تلك المناصب ، ولم يكن لهم أى دور إسلامى ، ولقد أدت محاباته لأقاربه إلى مزيد من الهيجان . ويرى بعض المؤرخين أن هذا هو السبب فى ظهور التمرد والعصيان وحدوث النهاية التى أدت إلى استشهاد الخليفة .

إن سياسة عزل وتعيين العمال (الحكام) كانت اتخذت كسلاح ضد عثمان ، ولكن هذه السياسة ذاتها كانت قائمة منذ العهد النبوى وفى عهد الشيخين ، فقد كان الخليفة فى كل وقت يقوم بمثل هذه التغييرات فى أعضاء الحكومة طبقا للمصالح والسياسة ولما يراه صوابا . وقد قام عمر رضى الله عنه فعزل عددًا من حكامه وقادته ومنهم خالد بن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص والمغيرة بن شعبة وهم من أكابر الصحابة ويفهم من واقعة سعد بن أبى وقاص أن تغييره لم يكن نتيجة لأى خطأ ارتكبه ، بل كان بناء على المصلحة السياسية ، إذ كانت سياسة الخليفة الثانى فى الكوفة والبصرة قائمة على استبدال الحكام إذا مالزم الأمر ، وإذا ما طالب المسلمون .

ويفهم من الروايات أن عمر درءًا للفتن التى حدثت فى المدن قام بالترتيب وبناء على شكاوى أهل البصرة والكوفة فعزل سعد بن أبى وقاص ، وعمار ابن ياسر ، وأبا موسى الأشعرى ، وعمر بن سراقة ، والمغيرة بن شعبة الثقفى . ومن الجدير بالذكر أن شكاوى الناس ضد هؤلاء الحكام شكاوى مسببَّة فسعد ابن أبى وقاص الزهرى لا يؤدى الصلاة بطريقة جيدة ، وعمار ضعيف ولم تكن له قدرة على الإدارة ، وأبو موسى أيضا مثله ، أما المغيرة بن شعبة فقد اتهم مرة بارتكاب الزنا ، ومرة أخرى بقبول الرشوة .

وطبقا لإحدى الروايات فقد أوصى عمر خليفته أن يعيد تعيين سعد بن أبى وقاص حاكما على الكوفة مرة أخرى ، وهكذا قام الخليفة الثالث فى بداية خلافته بالعمل بالوصية وعينه واليا على الكوفة ، وكان هذا أول مثال لتعيين صحابى جليل القدر فى خلافة عثمان ، غير أن مشادة حدثت بين سعد بن أبى وقاص والقائم على بيت المال عبد الله بن مسعود ، إذ أخذ الأول قرضا من بيت المال ولم يعده ، وقد ضخّم أهل الكوفة الأمر ، ولهذا رأى عثمان أن الواجب يقتضى استدعاءه ، وبعدها استدعى أيضا عبد الله بن مسعود . والذى كان يحز فى

نفس عبد الله بن مسعود هو أمر الخليفة بالاستيلاء على مصحفه ، وكان عزيزا عليه ، والاستيلاء على المصحف المسعودى لم يكن أبدا نتيجة ظلم أو قهر ولكن كان من سياسة عثمان رضى الله عنه أن يقوم بجمع المصاحف الخاصة بالقراءات ، والعمل على توحيد القراءات من مصحف واحد فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية . أما عزل المغيرة فكان بناء على وصية الفاروق . إذ إن الصحابى المذكور قد اتهم خطأ بقبول الرشوة . أما عزل أبى موسى والى البصرة فتم طبقا لسياسة الدولة ، إذ تم بناء على شكاية أهل البصرة ضده ، وعزل عبد الله بن الأرقم المخزومى كان بسبب تقدمه الكبير فى السن ، وعزل عمرو ابن العاص حاكم مصر إنما كان بسبب ما حدث بالنسبة لخراج الإقليم ، وحتى لو لم توجد هذه الأسباب فإن للخليفة الحق فى عزل قادته أو خلفائه مثل الحكام ، فتعيينهم مشروط بقبول الخليفة وثقته بهم .

وفيما يتعلق بالاتهام القائل بعزل كبار الصحابة ، وعدم تعيين كبار الصحابة بدلًا منهم ، فهناك ردود عدة على هذا الاتهام ، إلا أن هذا الاتهام غير تاريخى بالمرة ، فبعد عزل المغيرة بن شعبة عين الخليفة مكانه أبا موسى الأشعرى ، كما قرر تعيين زيد بن ثابت الأنصارى مكان القائم على بيت المال عبد الله بن الأرقم المخزومى ، وعلاوة على ذلك فإن كبار الصحابة كانوا قد كبروا فى السن بالمقارنة بأعمارهم فى خلافة الفاروق ، أو قبلها فى خلافة الصديق وفى العهد النبوى . والحقيقة هى أنه كان يتم ترجيح الصف الثانى دائما ، والصف الثالث من الصحابة أو الشباب فى ولاية الأقاليم والأعمال ؛ ففى العهد النبوى كان عتاب بن أسيد الأموى فى مكة ، وعثمان بن أبى العاص الثقفى فى الطائف ، والحارث بن نوفل الهاشمى فى جدة ، ويزيد بن أبى سفيان فى تيماء ، وخالد بن سعيد الأموى فى صنعاء ، وعمرو بن سعيد الأموى فى وادى القرى ، وأبان بن سعيد الأموى فى البحرين ، وحكم بن سعيد الأموى فى

قرى عربية ، وعدد من الأفاضل من مجموعة الشباب مثل معاذ بن جبل الخزرجى ، وعمرو بن حزم الخزرجى ، وزياد بن لبيد الخزرجى ، وكان بعضهم حديثى العهد بالإسلام تماما ، وأبو سفيان الأموى وابنه الشهير معاوية توليا أهم المناصب فى العهد النبوى . وفى خلافة الفاروق ، وبعد وفاة أخيه الأكبر تم تعيينه على ولاية الشام ، وظل هكذا لعدة سنوات ، بل ظل على ولاية الشام طوال عهد خلافة الفاروق . ويمكن تقديم العديد من الأمثلة على تعيين الشباب فى عهد خلافة الصديق وخلافة الفاروق .

والجزء الثانى من الاعتراض الأول ، وهو أن عثمان قد عين أقاربه وأصدقاءه بدلا من كبار الصحابة ، وعين الوليد بن عقبة الأموى ، وسعيد بن العاص الأموى ، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى على – بالترتيب – الكوفة والكوفة ومصر ، بينما فاز عبد الله بن عامر بولاية البصرة ، ومروان بن الحكم بوظيفة كاتب الخليفة ، ولم تتم إعادة تعيين معاوية بن أبى سفيان على الشام فقط ، بل أُعطى المزيد من المناطق أيضا .

ومن الناحية التاريخية يمكن اعتبار هذا الاتهام صحيحا بصورة جزئية ، فالبعض قد عينهم عثمان ، والبعض كان تعيينهم قد تقرر فى خلافة الفاروق ، وما جاء بالنسبة لمعاوية فقد فاز بالولاية فى خلافة الفاروق ولمدة ثمان سنوات ، وأقامه عثمان طوال مدة خلافته على ولايته هذه ، نظرا لما كان له من كفاءة وقدرة على الإدارة ، والجميع يعترف بهذه الحقيقة ، أن ولايته من أحسن الولايات من حيث النظام والربط والضبط والإدارة . فهل يعزل الوالى لما يؤديه من واجب جعل ولايته تمتاز عن غيرها بنظامها وانتظامها وحسن إدارتها ؟! ثم إن الخليفة كان يثق كل الثقة فيه ، ولم تصدر ضده أية شكوى ، دينية كانت أو سياسية أو إدارية . وبعض المؤرخين يقدمون هذا المنطق ، بل هم يتمنطقون قائلين بأن معاوية صار ملكا للشام بسبب طول مدة حكمه عليها ، وقد امتدت

جذوره داخل البلاد ، وأصبحت قوية متينة بحيث أصبح من الصعب زعزعته ، ولهذا السبب حدث ما حدث من خلاف مع الخليفة الرابع ، رغم أن الخلاف مع الخليفة الرابع كان من نوعية أخرى سوف نبحثها فيما بعد .

وقد كان الوليد بن عقبة الأموى أكثر من تعرضوا للذم من عمال عثمان رضى الله عنه ، فقد وجهت له الاتهامات من كل نوع ، من بينها الاهتمام بالسحرة ، والخمر ، ونقض العهد . وإشاعة الفرقة بين طبقات المسلمين ، وفى العهد النبوى عُهد إليه بجمع الصدقات من قبيلة بنى المصطلق ، لكنه – طبقا لبعض الروايات – عاد دون أن يجمع الصدقات ، وبسبب عناده الجاهلى ، وصل إلى رسول الله وأخبره بأن القبيلة رفضت أداء الصدقات ، وأنهم يعدون العدة للهجوم على المدينة ، وكان رسول الله على وشك الهجوم عليهم ، وإذا بوفد من بنى المصطلق يصل ويطلع الرسول على أمر الوليد بن عقبة ، فنزلت الآية رقم ٦ من سورة الحجرات فى حقه[1] . والتى ورد فيها لفظ « فاسق » صفة لعامل الصدقات .

وهذه الرواية بأكملها تضمنت نقاطًا جديرة بالاعتراض والرفض . وقد قرر عدد من المفسرين بوضوح أن المراد بـ ﴿ فاسِقٌ ﴾ ليس الوليد ؛ لأنه كان صحابيا جليلا ، وتأكيد هذا الأمر هو أنه رضى الله عنه قد تولى عهدة عامل الصدقات فى أوائل خلافة الصديق ، ثم تم تعيينه أيضا قائدا للجيش الإسلامى ، وفى عهد عمر عين عاملًا للصدقات أولا ، وبعدها حاكما للجزيرة ، ومن هنا غيّره عثمان وجعله حاكما على الكوفة ، ويتضح تماما من رواية ابن خلدون أن تعيينه فى الأصل كان تغييرا ، فقد ظل منذ خلافة الفاروق فى وظيفة حاكم ، ويعترض بعض المؤلفين بأن الخليفة الثالث قد نقله من وظيفته

---

(١) ﴿ يَا أَيُّها الذين آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ . الحجرات ٦ (المترجم) .

كحاكم على جزيرة صغيرة ليعينه على الكوفة ، وهى ولاية كبيرة ، وهذا الأمر خطأ من الناحية التاريخية ، فمقاطعة الجزيرة لم تكن أبدًا قليلة الأهمية ، فقد عين عليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

ومن التهم الأخرى الموجهة إليه تهمة شرب الخمر ، وهى تهمة كبيرة تستلزم الحد إذا ما ثبتت عليه ، وهناك تناقض كامل فى جميع الروايات الخاصة بهذه التهمة ، رواية تقول لقد كان هذا فى صلاة الفجر ، أو صلاة أخرى ، وصلى أربع ركعات وهو سكران وتضرر المأمومون وغير ذلك من الاتهامات . هذا ... وقد ذكر الطبرى رواية برّأته مما نسب إليه من تهم ، وربما كانت أقرب إلى التصديق ، وقرينة للقياس ، وطبقا لهذه الرواية فقد كانت هناك مؤامرة تحاك للطعن فى الوليد بن عقبة ، مما نتج عنها اتهامه بالسكر . وكان القائمون على هذه المؤامرة ثلاثة ، هم : أبو مورع الأسدى ، وجندب بن زهير الأزدى ، وأبو مصعب بن جثامة ، ومعهم مالك الأشتر النخعى . والثلاثة الأوائل من مثيرى الفتنة ، وقد أرادوا الانتقام من الوليد لقتله أبناءهم ، وقد حكم على قاتلهم بالموت ، أما مالك النخعى فقد كان من مثيرى الفتن والعصيان ضد عثمان . ومن الجدير بالذكر أن تهمة الشراب والسكر يمكن إثباتها عن طريق شهادة كاذبة ، وكانت التهمة أساسًا نتيجة لمؤامرة حاكها أكابر الكوفة الغاضبون ، وطبقا لرواية الطبرى كان للوليد مكانة طيبة ومحبة فى قلوب العامة ، بينما كان الأكابر غاضبين منه ، ولم يكن هذا الغضب بناء على أى سبب دينى أو أى سبب معقول ، بل كان بناء على أغراض ذاتية . والحقيقة أن أى حاكم من حكام الكوفة لم ينج أبدا من الاتهامات ؛ لأن أهلها وبخاصة أكابرها اعتادوا إثارة الفتن .

وبعد عزل الوليد بن عقبة الأموى عن حكم الكوفة قام الخليفة الثالث فى سنة ٢٩هـ بتعيين أحد أقاربه وهو سعيد بن العاص الأموى واليا على

الكوفة ، إلا أن أحدًا لم يعترض على هذا التعيين ، بل إن أشراف الكوفة الذين تسببوا فى عزل الوليد عادوا معه إلى الكوفة ، ولم يتهم أحد الخليفة الثالث بأنه عين أحد أقاربه ؛ لأنه كان صحابيا جليلا ، وكان عضوا من أعضاء مجلس كتابة وتدوين المصحف العثمانى ، وكان ذا شخصية عالية ، وظل واليا على الكوفة لخمس سنوات ، واعترف الجميع بما له من قدرة على الإدارة ، وبما له من كفاءة وصلاحية . وفى نهاية خلافة عثمان حين طالب أهل الكوفة بتغيير الحاكم ، قام عثمان بناءً على طلبهم بتعيين أبى موسى الأشعرى حاكما للكوفة .

أما طلب عزل أبى موسى الأشعرى عن ولاية البصرة ، فقد قدمه أكابر المدينة . كما طالبوا أيضا بتعيين حاكم شاب قادر على الإدراة ، وهكذا قام عثمان بالاستجابة إلى طلبهم . وعين عبد الله بن عامر بن كُريز حاكما للبصرة . وكان بقاؤه فى وظيفته هذه راجعا إلى ما له من قدرة إدارية أو ما أدَّاه من خدمات جليلة . بل كان ذلك لأنه يُرضى مثيرى الفتن بالبصرة ، وهذا هو السبب الذى جعله يبقى فى وظيفته هذه حتى آخر خلافة عثمان ، ولم يشك أحد منه ، وقد جاء مدح أعماله الطيبة على لسان على رضى الله عنه .

وبعد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر تم تعيين عبد الله بن سعد ابن أبى سرح العامرى ، ولم يكن أمويا ، بل كان أخا لعثمان رضى الله عنه فى الرضاعة . وصحيح أن عبد الله ارتد عن الإسلام بعد أن أسلم ، إلا أن الحقيقة تشهد أنه تاب وأصلح وعاد إلى الإسلام ، وجميع الروايات تشهد بأنه كان مسلما صالحا وصادقا . وأولئك الذين أساءوا إليه بسبب ارتداده ينسون أن الإسلام يجب ما قبله ، كما ينسون أن سخريتهم به ليست من العدل فى شىء ، ففى زمان ولاية سعد رضى الله عنه على مصر ، زاد خراجها زيادة كبيرة ، وهذه الزيادة قد رآها البعض نتيجة للظلم والقهر ، على حين تثبت الأبحاث أن ذلك كان نتيجة لحسن إدارته . لقد أقام صلة مباشرة بين الحكومة والزراع

وأصحاب المنتوجات ، وقام بفصل الوسطاء[1] ، الذين كانوا يقومون بتحصيل المبالغ كاملة لكنهم لا يؤدونها للحكومة كاملة ، بل يحجزون لأنفسهم بعضها ، وإذا كان الأمر كذلك ، فمن حق الباحث أن يعترف بما كان له من حسن الإدارة والنظام .

والحقيقة أن الناس غفلوا عن منجزاته هذه ، واتهموه بناء على عداوتهم لبنى أمية ، ولم يفهموا كم يرتكبون من مخالفات فى حق التاريخ الإسلامى . لقد قامت جماعة من المؤرخين بنقد مروان بن الحكم الأموى أيضا ، ومن المؤسف أنهم استخدموا لذلك أسلوبا غير لائق ، ووجهوا له اتهامات يصعب على العقل أن يقبلها ، ومن تلك الاتهامات أنه قد سمح لأبيه بالتدخل فى شئون الحكومة ، وأنه قد اختاره كاتبا [سكرتيرا] للخليفة ، وهذا المنصب من المناصب المهمة ، وأنه سلك سلوكا غير مقبول مع بعض الصحابة الكرام ، وغير ذلك .

لقد قبل المؤرخون كثيرا من الروايات التى سيقت ضد مروان ، وسكت بعضهم عن كثير من الروايات التى تتحدث عن الجوانب المضيئة فى شخصيته وسيرته . لقد كان عالما بالتفسير ، ولقد قرر الحافظ الذهبى أنه كان قارئا وفقيها ومتمسكا بالحدود الإلهية . والمحدثون يرون أنه محدث ثقة ، وقد روى عنه الإمام البخارى فى كتابه ، وقد قرر الحافظ ابن حجر فى الإصابة ومقدمة فتح البارى أنه كان ثقة فى الحديث . وهى تدل على علو مقامه .

إن ما جاء ذكره بالنسبة لاتهام عثمان رضى الله عنه بتفضيله ومحاباته للأمويين هو اتهام يتنافى مع حقائق التاريخ .

والدليل الذى يقدمه المتَّهِمُون هو أن عظماءهم لم يعينوا أقاربهم فى مناصب الحكومة ، والصحيح أن القرابة لم تكن أساسًا للتعيين ، كما لم تكن شرطا

---

(١) وهم من أُطلق عليهم فى فترات متأخرة « أصحاب الالتزام » . المترجم

ضروريا للحرمان من المناصب ، والشرط الأصلى كان اللياقة والكفاءة ، وقد انطبقت هذه الشروط بتمامها على عمال عثمان رضى الله عنهم ، ونظرا للكثرة العددية لأسرته وجد من بينهم العديد من الأفراد الأكفاء . ويذكر التاريخ أنه ابتداءً من العهد النبوى وحتى العهد العثمانى تولى الأمويون باستمرار مناصب الحكومة ، ولهذا فاتهام بعض المؤرخين لهم بأنهم حاولوا فى العهد العثمانى الاستيلاء على مناصب الحكومة عن طريق التآمر ، وأنهم نجحوا فى ذلك ، اتهام ربما ابتعد عن الصواب كثيرا ، ثم إن اتهام أحد بمحاباة أقاربه وتفضيلهم إنما يكون صحيحا إذا ما أسندت إليهم الوظائف لمجرد أنهم أقارب فقط ، كما أن حرمان القريب الكفء من الوظيفة بسبب القرابة ليس عدلا إسلاميا ، بالإضافة إلى ذلك فهناك حقيقة هامة يجب أن ننظر إليها من منطق أن عدد أقارب الخليفة بين جميع عمال عثمان كان قليلا ، ونسبتهم كانت بسيطة وعادية ، ومن بينهم عدد قام بتعيينه رؤساؤهم المباشرون ، والحقيقة أن إلصاق تهمة المحاباة وتفضيل الأقارب بالخليفة الثالث ، والقول بأنه تسلط ، فعزل هذا وعين ذاك ، إنما هو جزء من مؤامرة كريهة حيكت ضد الخلافة الإسلامية ، ولسوف نلقى الضوء عليها بعد قليل .

التصرف فى بيت المال :

من بين العديد من التهم الأخرى الموجهة من جانب المؤرخين المغرضين فى حق عثمان رضى الله عنه ، تهمة أكبر من جميع التهم الأخرى ، وهى التصرف بطريقة غير مناسبة فى بيت المال الرسمى ، وإغداق الأموال دون وجه حق على أقاربه ، وهناك رواية تقول بأن الخليفة الثالث قد وهب مروان بن الحكم خمس أفريقية ، وأعطى عبد الله بن مسعود خمس مصر ووهب خيبر لعبد الله بن خالد .

لقد كان عثمان رضى الله عنه ثريا ، رزقه الله المال الوفير ، وما كان يعطيه

لأحبابه وأقاربه إنما كان يعطيه من ماله الخاص . لا من خزانة الدولة الرسمية . أما الهبات والهدايا لأصحاب الوظائف فقد كانت لحسن خدماتهم ، وهى سياسة قديمة قام بها عمر رضى الله عنه إذ وهب أنس بن مالك مبالغ وصلت من البحرين ، بالإضافة إلى هذا ، فهناك روايات أخرى تفيد بأن سبب اعتراض الناس هو أن الخليفة الثالث قام باسترداد هذه العطايا المقدمة للثلاثة المذكورين ، وأدخلها فى بيت المال ، وقد ذكر ابن خلدون أن مروان كان قد اشترى خمس أفريقية . وأنه لم يكن عطية من الخليفة ، وقد خطّأ جميع الروايات التى تشير إلى مسألة العطية ، وعلى ذلك فربما كانت هذه الاتهامات من تعصب بعض كتاب التاريخ .

القطائع :

وهناك اتهام آخر موجه ضد عثمان ، ويتعلق بالقطائع أو الإقطاعيات ، والتاريخ يشير إلى أنه قد جرى العرف طوال العهد النبوى بذلك ، فقد قام رسول الله ﷺ بإعطاء مختلف الناس إقطاعات متنوعة ، وكذلك كان أبو بكر وعمر ، فقد قام أبو بكر بمنح إقطاعات للزبير وطلحة ، وكانا من أقاربه ، وممن نالوا كرم قطائع الفاروق : عثمان وعلى والزبير ، وطلحة ، وعبد الرحمن ابن‌عبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت الخزرجى ، وطبقا للعرف السابق ، فإن الخليفة الثالث قام فى فترة خلافته بإعطاء بعض الناس قطائع نظير خدماتهم واستحقاقاتهم ، من بينهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، والزبير وخباب بن الأرت ، وأسامة بن زيد ، وسعد بن أبى وقاص ، وكان من بينهم فقط الزبير الذى تربطه به علاقة مصاهرة . ويثبت فى ضوء جميع هذه الحقائق أن الاتهام الموجه للخليفة الثالث إنما هو اتهام غير صحيح .

محاسبة العمال :

ومن الاتهامات الموجهة إلى عثمان تأخره فى محاسبة عماله على جرائمهم ،

ومثال ذلك أنه لم يقم بإجراء حد شرب الخمر على الوليد بن عقبة ، كما أنه لم يحاسب مروان بن الحكم ، ولم يوقفه عن تهديداته ، وطبقا للروايات التاريخية فإن الخليفة حين سمع الشهادات كاملة عن شرب الخمر فى حق الأول لم يتباطأ فى إقامة الحد عليه . ويتضح من الروايات أنه قام بالحجر على مروان فى حينه . أما ما يتعلق بموضوع عدم إقامة الحد على ابن عمر لقتله الهرمزان وجفنية فقد قام هو نفسه طبقا للإجازة الشرعية ، وطبقا لإجماع الصحابة الكرام بدفع دية القتلى من جيبه الخاص كخليفة ، ولهذا فليس هناك قضية تتعلق باتهامه بتأخير تنفيذ الحكم .

الاتهامات الأخرى :

إن قائمة الاتهامات الموجهة ضد عثمان رضى الله عنه قائمة طويلة ، إلا أن عددا من المؤرخين قاموا بتفنيدها والرد عليها ، واعتبروها اتهامات باطلة أساسًا ، وهذه الاتهامات من النوع القائل بالصلاة أربع ركعات أثناء الحج فى مكة ، وأمور كثيرة يمكن أن يطلق عليها أنها اختلافات فقهية ، وكان عثمان رجلا صاحب بصيرة ، وعارفا بالشريعة ، ولا يمكن أن يقال هنا غير ذلك . كما يتضح من استعراض الأحداث التاريخية أن هذه الاتهامات كانت نتيجة لمجرد تعصب أعمى وعداء دون حق ، وجهل بالتاريخ .

أهم ملامح السياسة العثمانية :

هناك نقطتان تتعلقان بملامح السياسة العثمانية بالنسبة للعمال الأولى : أن الخليفة أعلن فى جميع البلاد أنه ستتم محاسبة العمال علنًا كل سنة وفى موسم الحج ، ومن لديه شكوى فعليه أن يقدمها للخليفة مباشرة ، وتم تنفيذ هذا الأمر . الثانية هى أنه حين وصلت الشكاوى ضد العمال بكثرة إلى المدينة المنورة قام عثمان بناء على مشورة كبار الصحابة بتشكيل لجنة للتحقيق نيابة عنه فيما نسب إلى عمال الأمصار وبموجب رواية للطبرى ، تم إرسال محمد بن مسلمة

الأنصارى وأسامة بن زيد الكلبى وعبد الله بن عمر العدوى ، وعمار بن ياسر إلى الكوفة والبصرة والشام ومصر بالترتيب ، وذلك للتحقيق فى الشكاوى ، وأشار جميع هؤلاء الصحابة (ماعدا عمار بن ياسر) بعد أن أجروا التحقيقات المطلوبة « إلى أنهم لم يروا هناك أى أمر غير مرض » . وقد خالف عمار فى ذلك . ولم يكتف عثمان بهذا ، بل طلب عمال الولايات واستجوبهم واطمأن إلى إجاباتهم ، وأصدر حكمه بإعادتهم ، ولكن فى أثناء ذلك تمت المؤامرة الخبيثة التى هدفت إلى الطعن فى عثمان وعماله ، وأعلن العصيان ضد الخلافة الإسلامية ، واستشهد عثمان رضى الله عنه ، وتفتتت الوحدة الإسلامية .

وتشير المصادر إلى أن أول شخص وضع البذرة الأولى فى المؤامرة ضد عثمان هو عبد الله بن سبأ ، الذى ارتدى رداء الإسلام بعد ترك يهوديته ، حتى يكمل أهدافه الكريهة ولقد أصاب بسهمه عصفورين ، إذ عرض تصورًا مبالغا فيه لحب أهل البيت ، وجعل الخلافة حقا موروثا لعلى رضى الله عنه ، ومن ناحية أخرى جعل خلافة عثمان غير شرعية . وطبقا لما ورد بالطبرى فقد بدأ نشر مؤامرته من محاور ثلاثة .

المحور الأول أنه أثار الناس ضد عثمان تحت غطاء الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والمحور الثانى محاولة التشنيع والإساءة إلى العمال العثمانيين . والثالث نشر الإشاعات عن محاباة الخليفة الثالث لأقاربه .

ويفهم من رواية أخرى للطبرى أن المتآمرين قاموا بنشر الكراهية ضد الحكومة بطريقة مخططة محكمة ، وكانوا يعرفون تماما أن العامة والخاصة لن يتحملوا أبدًا أى اتهام ضد شخصية عثمان وذاته ، وأنهم لو اعتمدوا على ذلك فسوف تفشل حركتهم من أولها ، ولهذا بدأوا معارضتهم للحكومة بإثارة الفتنة ضد عمال عثمان على أساس توجيهها إلى الخليفة فيما بعد إذا قبلها الناس ،

واختار هؤلاء لتنفيذ مخططهم معسكرات الكوفة والبصرة ، حيث التربة خصبة تماما للمؤامرات ، فهى من حيث كونها مدنا جديدة ليس لها سكان أصليون ، وليس لها مثل أو تقاليد ، وكان لعبد الله بن سبأ فى مراكز الغدر هذه العديد من المؤيدين وقد قام هو بنفسه كما أرسل دعاته ونقباءه فقاموا بالدعاية التى كان من نتيجتها إثارة الفتنة ، تلك الفتنة التى خُدع بها الكثيرون من البسطاء ، وانطلقت الشرارة الأولى للمؤامرة فى الكوفة ، أما نيران الفتنة فى البصرة فقد أوقدها عبد الله بن سبأ بنفسه ، إذ تآمر مع أحد قطاع الطرق المشهورين هناك ، ويدعى حكيم بن جبلة ، وقاد حركة النقد واللوم والتجريح . إلا أنه أخرج من هناك بسرعة فوصل إلى الكوفة حيث انضم إلى أهل الفتنة التى اشتدت هناك ، ثم أخرج من هناك فذهب إلى الشام ، لكنه لم يتمكن من التحرك هناك فوصل فى النهاية إلى مصر ، حيث وجد بها معارضين لعثمان ، هما محمد بن أبى حذيفة ، ومحمد بن أبى بكر ، ونظرًا لعداوتهم الشخصية ، قادا حركة العداء ضد عثمان وحكومته . وتلقى روايات الطبرى وابن الأثير الضوء على نشاطاتهم .

وبوصول عبد الله بن سبأ إلى مصر وجدت حركته لها قائدا . وبدأ عدد المتآمرين ومثيرى الفتنة يزداد تدريجيا ، وبعد ذلك ، وطبقا لخطته تم الهجوم على المدينة المنورة مركز الخلافة ، حيث وضعت خطة قتل الخليفة الثالث ، وطبقا لهذه الخطة وصل المتآمرون فى وقت واحد من ثلاث جهات مختلفة ، الكوفة ، والبصرة ، والفسطاط . ولقد اختاروا وقتا كانت فيه المدينة خالية من معظم الصحابة الكرام ومن الجيش ، فقد كان ذلك فى شهر الحج ، ووصول المجموعات الثلاث فى وقت واحد إلى المدينة إنما يدل على التآمر الدنىء . وكانت ذريعتهم فى ذلك هى الحصول على موافقة الخليفة على مطالبهم ، وهكذا وحين وافق الخليفة الثالث على مطالبهم بناء على مشورة

ووساطة كبار الصحابة لم يكن أمامهم من سبيل سوى العودة ، إلا أنهم لم يكونوا ليعودوا دون أن يحققوا مرامهم وهدفهم الخبيث ، وفى الطريق قاموا بالعودة بحجة بعض الخطابات المزورة ، ويعلم من الطبرى والمصادر الأخرى أن عليًّا ناقش هؤلاء المتمردين ، وحاول أن يثنيهم عن عزمهم ، إلا أنهم فى هذه المرة جاءوا مصممين على تنفيذ مخططهم . فحاصروا المدينة ، ولم يكن أهل المدينة وكبار الصحابة على علم بهذه المؤامرة الخطرة ، كما لم يكونوا على استعداد لمواجهة هذه المحاصرة ، لهذا كانوا جميعا بلا حول ولا قوة ، ولم ينج أحد من أيدى المتمردين إلا ونال الإيذاء ، وهكذا جلس الكثير من الناس فى بيوتهم لا يبارحونها ، ولا شك أن عددا من الصحابة الكرام وأولادهم قاموا بحماية الخليفة الثالث حماية كاملة ودافعوا عنه .

قام المتمردون أولا بالإساءة إلى عثمان فى المسجد ، وأخذوا يلقون عليه بالطوب ، لدرجة أنه سقط مغشيا عليه وهو يخطب فى الناس وبعد ذلك قاموا بمحاصرة منزله ، فمنعوا عنه الطعام والماء . وقام عدد من الصحابة وأمهات المؤمنين بالمخاطرة بالروح حتى أوصلوا إليه الطعام ، وفى النهاية قرر العصاة المتمردون اغتيال الخليفة لأنه رفض طلبهم بالتنازل عن الخلافة ، فقاموا بالهجوم على بيته لكنهم لم يتمكنوا من الدخول من البوابة الرئيسية ، حيث وجد عدد من الفدائيين يدافعون عن الخليفة ، ولهذا تسلقوا الحائط المؤدى من منزله إلى طريق المسجد ، وكان من بين هؤلاء محمد بن أبى بكر ومالك بن الأشتر النخعى وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر التميمى وغيرهم ، وهجموا على الخليفة ، بينما كان يتلو القرآن الكريم . وتفجر الدم الطاهر على أوراق المصحف ، ونجحت مؤامرة المتآمرين ، وانفرط عقد الأمة الإسلامية .

الفتنة الكبرى :

يطلق المؤرخون المسلمون على الفترة من بداية المؤامرة ضد الخليفة الثالث

عثمان رضى الله عنه اسم « الفتنة الكبرى » وهذا اسم على مُسمى ، إذ انفرط عقد الخلافة الإسلامية وتفتتت وحدة الأمة ، وتخاصم المسلمون وتناحروا وانقسمت الأمة الإسلامية حينذاك إلى ثلاث مجموعات متحاربة ، وإلى جماعة غير منحازة . مجموعة كانت فى صف على تؤيده وتسانده وقامت لانتخابه خليفة رابعا بعد استشهاد عثمان فى المدينة المنورة . ومجموعة أخرى كانت مع عائشة الصديقة رضى الله عنها ، وكان من حماتها الزبير وطلحة ومن فى صفهم ممن وقفوا يطالبون بالقصاص لمقتل عثمان ، وقادوا حركتهم أولا فى مكة وبعد ذلك فى البصرة . والمجموعة الثالثة وهى المجموعة القوية ، وضمت حماة معاوية ابن أبى سفيان والى الشام والأوفياء له ، وقد قاموا يطالبون بالقصاص من مقتل عثمان ، وأنكرت هذه المجموعة الاعتراف بخلافة على . والمجموعة الرابعة ضمت من احتاط من الصحابة الكرام وكبار المسلمين ممن لم يرغبوا فى أن يلوثوا أنفسهم بالحرب الداخلية بين المسلمين ، ولهذا ظلت هذه المجموعة واقفة وحدها منفصلة عن الجميع .

حدث هذا فى حين وصلت الأمور إلى درجة من الغموض والتعقيد يصعب معها التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين الحق والباطل ، إذ كانت كل جماعة تعتبر نفسها على حق والآخرين على باطل ، كان على يرى أنه الأحق بالخلافة ، ولهذا كان من الضرورى أن يبايعه جميع المسلمين ، ومن ناحية أخرى كان الحق مع مطالبة عائشة ومعاوية بالقصاص من قاتل عثمان . وعلى الخليفة الرابع أن يقتص منهم ، فإن لم يفعل فهو متهم بحمايته لهم ، هذا بينما كانت دعوى علىّ رضى الله عنه أنه لا حول له ولا قوة ، وكان هذا إلى حد كبير صحيحًا فى بداية خلافته ، نتيجة لما كانت عليه الظروف من تعقيد فى هذا العصر الذى سمى بحق عصر الفتنة الكبرى .

وربما حملت وجهة نظر المؤرخين القدامى بعض التعصب وربما كان فى

رواياتهم فيها الكثير من الميول القبلية أو الميول الطائفية ؛ لذا كان من واجبنا الوقوف بحذر أمام كثير من رواياتهم .

السيدة عائشة وحركتها الإصلاحية :

يتهم بعض المؤرخين المؤيدين لعلى رضى الله عنه سواء القدامى منهم أو المحدثون عائشة ومن معها بإعلان العصيان ضد الخليفة صاحب الحق ، وقالوا بأنهم كانوا على باطل ، وفى هذا الصدد ذكر المؤرخون القدامى بعض الروايات التى تؤيد عليا وتعارض هؤلاء الكبار من الصحابة والتابعين . وعلى سبيل المثال ففى حديثهم عن واقعة الجمل ذكروا رواية عائشة ، وهى رواية نباح كلاب قرية مروا عليها ، وأن رسول الله ﷺ قال ما معناه أن هؤلاء الثلاثة على باطل وسوف يحاربون عليا فى يوم ما ، وطبقا للرواية الأخيرة فإن طلحة والزبير تركا ميدان القتال بناء على تذكير علىّ لهم ، واعترفا بخطئهم ؛ والحقيقة أن الروايات الثلاث موضوعة ولا تستقيم على محك الرواية والدراية كليهما ، ويفهم من الروايات الصحيحة للمصادر أن هدف عائشة ومن معها هو القصاص من قاتل عثمان حتى يمكن سد باب الفتنة وينصلح حال الأمة .

لكن خورشيد أحمد فاروق لم يترك شخصية فى هذا الأمر دون طعن أو تجريح ، فرأى أن طلحة والزبير كانا يريدان الخلافة ، وأنهما قد حاولا بكل قوة الحصول عليها مثلهم فى ذلك مثل علىّ ، وقاموا بالإغداق على مؤيديهم السياسيين من أموالهم وثرواتهم فى الكوفة والبصرة ، ولكن حين أيدت الكوفة عليا وبايعته ... ضعفت الفرق الأخرى وأخذت البيعة بالقوة من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام . إن اتهام طلحة والزبير باتخاذ إجراءات تهدف إلى الحصول على الخلافة ، وتشكيل فرق سياسية ، والتمسح بدم عثمان هو مجرد اتهام . إنهما لم يحاولا أبدًا الحصول على الخلافة ، وقد كانا أول من قاما بسحب اسميهما بناء على اقتراح عبد الرحمن بن عوف من بين المرشحين فى المجلس الذى شكله عمر ،

وهذا دليل بينّ وواضح فى سلوكهما ، ثم إن الوقائع التاريخية فى مكة والبصرة ترد بطريقة كاملة هذه التهمة ، فلو كانايريدان الخلافة لما تصالحا أبدًا مع علىّ . « إن هذين الصاحبين الجليلين قد طالبا عليا بحكومة الكوفة والبصرة ، ورفض علىّ إعطاءهما هذا المطلب ولهذا خالفاه » . هذا اتهام لا تصدقه ولا تؤيده أية رواية تاريخية . وصحيح أنهما كانا يؤمنان بضرورة القصاص من قاتل عثمان ، وقد كانا صادقين فى هذا الأمر ، ورؤيتهم لقتلة عثمان فى جيش علىّ جعلهم على يقين من صدق موقفهم .

ولقد اتهم سيد أمير على السيدة عائشة قائلا بأنها عارضت عليا بسبب عداء شخصى ، واشتركت فى حرب الجمل ، بينما قام خورشيد أحمد فاروق باتهامها بمحاولة تعيين طلحة بن عبيد الله التيمى أحد أقاربها طمعا فى الثروة ، ونظرا للعصبية القبلية بالإضافة إلى اتهامها بالشكوى من أمور شخصية ، والتهمتان لم تثبتا بأى شكل من الأشكال فى أى مصدر من المصادر ، ويتضح من خطابات عائشة ، ومن بياناتها التاريخية ، ومن سير الأحداث أنها أرادت حل قضيـة تهم الأمة ، ولو كانت فيها هذه العصبية لما اقترحت أن يقوم عمر بإمامة الصلاة بدلا من والدها فى مرحلة مرض رسول الله ﷺ ، ثم يتضح من كلامها قبل وقعة الجمل أنها كانت تعمل بكل إيمان وصدق من أجل الحق .

سلوك علىّ :

اعتبر خورشيد أحمد حماية على لقاتلى عثمان ، وتأييده لهم ، وتنصيب نفسه خليفة بتعاونهم ، ورفضه تقديمهم للقصاص ، خطأً كبيرا ، كتب يقول : « إن أولئك الذين اشتركوا أو قاموا بقتل الخليفة السابق ، قاموا بتنصيب علىّ خليفة ، ولا يمكن أن يهز أساس خلافته بتسليمه إياهم لمعارضيه ليقتصوا منهم » وكانت الصعوبة التى تواجه عليا أنه كان يعرف أن القتلة موجودون داخل جيشه ، إلا أنه لم يكن قادرا على معرفتهم وتمييزهم ، ولكن المودودى يرى

أنه قد تأذى وأعلن براءته منهم ، وقبل حرب صفين وصل مبعوث معاوية للتباحث مع علىّ ، فقام جيش على الذى كان يضم الآلاف بالدق على الطبول معلنا أنهم جميعا قاتلو عثمان ، وصار الوضع فى غاية التعقيد والغموض ، ووسط هذه الظروف كان التعرف على القتلة وعقابهم أمرا مستحيلا ، فلو كانت الظروف مواتية لأمكن الكشف عن القتلة ، ولأمكن عقابهم . إلا أن الأحداث تطورت بسرعة فائقة لم تسمح بوجود تلك الفرصة .

احتجاج معاوية :

معظم مؤرخينا يعارضون معاوية ، ويلقون على أكتافه بمسئوليات حرب صفين ، وهم يرون أن معاوية اتخذ من قصة القصاص لعثمان ذريعة لاستكمال أهدافه السياسية ، فأثار مشاعر أهل الشام ، وأغدق على الناس بالأموال ، حتى جعلهم فى صفه ونتيجة لذلك نجح نجاحا كاملا فى تحقيق أهدافه .

وكان معاوية ورفاقه فى العمل من مثل عمرو بن العاص يرون قتلة عثمان داخل جيش علىّ فيشعرون أنهم على حق ، وقد أعلنوا عن ذلك فيما كتبوه إلى على خاصة وكبار الأمة بصفة عامة . وأكبر المدافعين عن على من مؤرخينا وهو المودودى يكتب أن عليا : « بعد موقعة الجمل ... تغير سلوكه تجاه قاتلى عثمان ، وظل يتأذى من هؤلاء الناس حتى وقعة الجمل ، وتحملهم بقلب غاضب ، وكان ينتظر الفرصة للقبض عليهم ، إلا أنه تدريجيا حدث تقارب بينه وبين أولئك الناس الذين أثاروا الفوضى ضد عثمان ، ثم صاروا فى النهاية مسئولين عن قتله ، حتى أنه أسند منصب الولاية لمالك بن الحارث الأشتر ومحمد بن أبى بكر ، بينما يعرف الجميع الدور الذى لعباه فى مقتل عثمان ... » ومن الواضح أنه وسط هذه الظروف المعقدة فإنّ اتهام معاوية بأنه على باطل تماما إنما هو اتهام غير صحيح ، والتحليل المقبول هو ما ينسب فى التاريخ إلى سيدنا علىّ ، حين سئل عمن مات على حق وعمن مات على باطل ، فقال :

« إن من حارب فى سبيل مرضاة الله سينال الجنة ، ومن حارب طلبا للجاه والحرص على الدنيا فهو فى النار » ولقد لجأ المؤرخون عموما إلى الإفراط والتفريط وهم بصدد تحليل أحداث الفتنة الكبرى ، والسبب فى ذلك هو جميع المزاعم والأفكار التى رسخت فى أذهان الناس منذ فترات طويلة ، ولقد ساهم مؤرخونا القدامى بدور أساسى فى تشكيل هذه الأفكار ، والذين كانوا بصورة واضحة منحازين إلى صف علىّ ، وكانوا يعارضون من يعارضه ، ولهذا يجب على القراء أن يحتاطوا حين يطالعون كتبهم بصورة عامه ، وكتب المؤرخين الجدد بصفة خاصة ، ويجب أن نقبل الروايات بشقيها بعد دراسة وفحص وتمحيص .

خاتمة المطاف

يتضح من البحث المفصل السابق نوعية الهجمات المغرضة للمستشرقين والمؤرخين المغرضين على أهم فترات وأحداث التاريخ الإسلامى ، وقد ألقينا بنظرة فى هذا الصدد على كتابات المؤرخين المسلمين الأوائل وكتابات المستشرقين والمؤلفين المحدثين التى بنيت على تحليل وتفسير الروايات التاريخية بطريقة خاطئة . وكان ذلك نتيجة للميول الفكرية لهؤلاء المؤرخين ، ونتيجة لتأثير عامل العقائد الدينية ، ولهذا يجب علينا أن نقف من كتاباتهم فى يقظة ، وألا نقبل آراءهم فى سهولة ، وأن نلاحظ الأمور التالية :

الأمر الأول : أن نلاحظ دائما فى الروايات والمصادر الإسلامية القديمة أن الراوى كثيرا ما يتأثر بميوله الذاتية ، فلا يحتاط فى قبول أو رفض الروايات ، كما أنه قد يتأثر بعاطفته القبلية ، ومع هذا فإن أكثر ما كتبوه طبقا لإيمانهم وطبقا لعقيدتهم كان صحيحا من وجهة نظرهم ، فليست كل رواية من رواياتهم مشكوكًا ومشتبهًا فيها ، وأكثر الروايات صحيحة ، ولو علم القارئ الاتجاه الفكرى لكل راوٍ ومؤلف فسوف يفهم جيدا وجهة نظره ومدى الصدق فى رواياته .

الأمر الثانى : يجب الانتباه فيما يتعلق بالمؤرخين المسلمين الكبار إلى ما يذكر عن الرواة الأوائل لأنهم كانوا ينتمون إلى مناطق مختلفة ، ولأنهم كانوا عراقيين ، وقد يلاحظ موقفهم ضد الشاميين والأمويين على الخصوص ، وقد يميلون إلى العباسيين ويعارضون الأمويين .

الأمر الثالث : أن مؤرخى القرن الثالث الهجرى وما بعده كانوا جامعى روايات ، فإذا ما وجدت فى كتاباتهم تأييدا أو معارضة لطبقة ما أو فرد ما ،

فيجب أن ينتبه القارئ ، فقد يكون الأمر على عكس ذلك ، لأنهم يعتبرون جمع الروايات من كل نوع ، سواء كانت صحيحة أو ضعيفة واجبا عليهم ، ولا يرون من الضرورة أو من واجبهم نقدها أو التعليق عليها ، ولا يرون ذلك من واجبات عملهم ، بل يتركون عملية النقد للقراء ، ولهذا لا يجب أن تقبل رواياتهم على علّاتها دون أن توضع دائما على محك النقد .

الأمر الرابع : يسود هذه الروايات طابع المبالغة والغلو ، ولهذا وجب ملاحظة هذه الأمور عند قراءتها ، كما لا يجب أن تقبل المعجزات والكرامات والخوارق والتنبؤات دون نقد أو تحليل ، لأنه كثيرا ما تكون مملوءة بالمبالغة ، بالإضافة إلى أن تكون موضوعة أو مختلقة .

الأمر الخامس : يجب الاحتياط دائما فيما يتعلق بمشاجرات الصحابة ، فهم ليسوا بمعصومين ، فصدور الأخطاء أو ارتكابها من جانبهم ليس بالمستحيل ، بل هو ضرورة من ضرورات البشر ، ولكن لا يوجد لديهم ، وخاصة أكابر الصحابة سوء النية أو سواد الباطن ، لهذا فما قاموا به ، قاموا به بكل إيمان ، فلو تذكرنا الأهداف والمقاصد فيما يتعلق باختلافاتهم فإننا حينها يجب أن نفهم تعليقات الرواة وكتاب الأخبار ، ولا يجب أن نقبلها طالما لا توجد لها شواهد تاريخية مؤكدة .

الأمر السادس : لا يجب أن نقبل بعيون مغلقة ما يذكره أصحاب الأخبار أو النقلة ، أو بيانات المفسرين أو علماء الجرح والتعديل ؛ لأنهم عادة ما يذكرون آراءهم الذاتية المبنية على معلوماتهم ، وكثيرا ما تكون معلوماتهم عن شخص ما أو طبقة ما أو إدارة ما ناقصة ، وهكذا يكون تعليقهم بالضرورة غير مكتمل وغير واقعي .

الأمر السابع : يجب أن ننظر إلى كتابات المستشرقين بالشك دائما ، ويجب أن نشك فيما يكتبون حتى نتيقن بأنفسنا من صحته ، فمعظم المستشرقين

لهم موقف متعصب ضد التاريخ الإسلامى والإسلام ، ومعظمهم لم يطالع التاريخ الإسلامى جيدا . كما أنهم لا يعرفون اللغة العربية جيدا . كما أن معرفتهم بالهيئات الإسلامية غير دقيقة . ولهذا فكتاباتهم فى معظمها تفتقد إلى التوازن والصواب .

الأمر الثامن : معظم المؤرخين المحدثين إما تأثروا بالرواة القدامى أو تأثروا بكتابات المستشرقين ، ولهذا يجب على القارىء أن يضع فى ذهنه عنصر التأثير هذا حتى لا ينخدع بأسلوبهم وشرحهم للأحداث .

الأمر التاسع : لا يجب قبول أية كتابات مهما كانت دون نقد أو تحليل . يجب أن يكون عقلنا واعيا وقلبنا مدركا ، فنحن يمكن أن نشاهد جيدا من خلال وجهات نظرنا نحن التضارب والتضاد فى بيانات المؤرخين وميولهم الفكرية والعقدية ، وأهدافهم وأغراضهم . وعليها يجب أن نقرأ التاريخ الإسلامى بتناظره الصحيح .

المراجـع

١ - ابن الأثير ، عز الدين على بن محمد . م (٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) .
الكامل فى التاريخ - بيروت ١٩٦٥م .
أسد الغابة - طهران ١٩٠٩م .

٢ - ابن أبى الحديد . م (٦٥٥هـ/ ١٢٥٩م) .
شرح نهج البلاغة القاهرة ١٩٥٩م .

٣ - ابن حجر العسقلانى م (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) .
الإصابة فى تمييز الصحابة - القاهرة ١٩٣٨م .
تهذيب الأخلاق - حيدر أباد الدكن ١٩١١م .
لسان الميزان - حيدر أباد الدكن ١٩١١م .
فتح البارى فى شرح البخارى - بولاق ١٨٨٢م .

٤ - ابن حزم ، على بن أحمد م (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) .
جمهرة أنساب العرب - القاهرة ١٩٤٨م .
جوامع السيرة - القاهرة ١٩٥٦م .

٥ - ابن حنبل ، أحمد بن محمد م (٢٤١هـ/ ٨٥٥م) .
المسند - القاهرة ١٩٤٩م .

٦ - ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد م (٨٠٤هـ/ ١٤٠٦م) .
كتاب العبر - بيروت ١٩٥٦م .

المقدمة – القاهرة – طـ مصطفى محمد .

٧ – ابن سعد محمد م (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) .
الطبقات الكبرى بيروت ١٩٥٧ .

٨ – ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا م (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) .
كتاب الفخرى – القاهرة ١٨٩٩م .

٩ – ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم دينورى م (٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) .
كتاب المعارف القاهرة ١٩٦٠م .
عيون الأخبار – القاهرة ١٩٢٥م .
كتاب الإمامة والسياسة – القاهرة ١٩٢٥م . (منسوب) .

١٠ – ابن كثير ، إسماعيل بن عمر م (٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م) .
البداية والنهاية – القاهرة ١٩٣٢ .

١١ – ابن هشام . عبد الملك م (٢١٨هـ/ ٨٣٣م) .
السيرة النبوية – القاهرة ١٩٢٥م .

١٢ – أبو حنيفة الدينورى م (٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) .
كتاب الأخبار الطوال – ليدن ١٨٨٨م .

١٣ – أبو داود . سليمان بن الأشعث . م (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م) .
السنن – القاهرة ١٩٢٢م .

١٤ – أبو عبيدة قاسم بن سلام م (٢٢٤هـ/ ٨٣٦م) .
كتاب الأموال – القاهرة ١٩٣٤م .

١٥ – أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم م (١٨٢هـ/ ٧٩٨م) .
كتاب الخراج القاهرة ١٩٣٣م .

١٦ – أرزقى . محمد بن عبد الله م (٢٤٤هـ/ ٨٥٨م) .

أخبار مكة بيروت ١٩٦٤ .
١٧ - البخارى . محمد بن إسماعيل م (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) .
الجامع الصحيح - القاهرة ١٩٥٥م .
التاريخ الكبير - حيدر أباد الدكن ١٩٤١م .
١٨ - البغدادي ، محمد بن حبيب م (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) .
كتاب المحبر حيدر أباد الدكن ١٩٤٢م .
كتاب المنمق حيدر أباد - الدكن ١٩٦٤م .
١٩ - البلاذرى ، أحمد بن يحيى م (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) .
أنساب الأشراف ط ١ القاهرة ١٩٥٩م ، الرابع - القدس ١٩٣٨م .
الخامس - القدس ١٩٣٦م .
فتوح البلدان القاهرة ١٩٣٢م .
٢٠ - الطبرى ، محمد بن جرير م (٣١١هـ/ ٩٢٣م) .
تاريخ الرسل والملوك القاهرة ١٩٦٠ م .
جامع البيان عند تأويل آى القرآن ، القاهرة ١٩٦٠م .
٢١ - الفاكهى - محمد بن إسحاق م (٢٧٢هـ/ ٨٨٢م) .
المنتقى فى أخبار أم القرى - بيروت ١٩٩٤م .
٢٢ - مالك بن أنس م (١٧٩هـ/ ٧٩٥م) .
الموطأ القاهرة ١٩٥١م .
المدونة القاهرة ١٩٠٥م .
٢٣ - مسلم بن الحجاج القشيرى م (٢٦١هـ/ ٩١٥م) .
الجامع الصحيح - القاهرة ١٩٥٢م .
٢٤ - المسعودى . على بن حسين م (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) .
مروج الذهب - القاهرة ١٩٢٧م .

كتاب التنبيه والأشراف –ليدن ١٨٩٢م .

٢٥ – الواقدى ، محمد بن عمر م (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) .
كتاب المغازى – لندن ١٩٦٦م .

٢٦ – يعقوب ، أحمد بن أبى يعقوب م (٢٩٢هـ/ ٩٠٣م) .
التاريخ – بيروت ١٩٦٠م .
كتاب البلدان – ليدن ١٨٦٠ م .

٢٧ – يحيى بن آدم م (٢٠٢هـ/ ٨١٨م) .
كتاب الخراج – ليدن ١٨٩٦م .

٢٨ – أحمد أمين ، فجر الإسلام – القاهرة ١٩٦٤م .
ضحى الإسلام – القاهرة ١٩٦٤م .

٢٩ – طه حسين ، على هامش السيرة – القاهرة ١٩٧٤م .
الشيخان – القاهرة ١٩٦٠م .
الفتنة الكبرى – ط دار المعارف .

٣٠ – عمر أبو النصر ، خلفاء محمد – بيروت ١٩٣٥ .
محمد وعصره – بيروت ١٩٤٩م .

٣١ – أبو الأعلى المودودى ، خلافت أورملة آيت دهلى ١٩٦٩م .

٣٢ – خورشيد أحمد فاروق تاريخ إسلام دهلى ١٩٨٢م .

٣٣ – شبلى نعمان – سيرة النبى أعظم كَرمق ١٩٧٣م .

٣٤ – نقوش . (مجلة) رسول غير إراده فروغ ارندلوصور (مجلد) ١٩٨٢م .

35 . Andre , Tor , *Mohammad the Man and His Faith* , London 1956 .

36 . Arnold , T.W., *The Caliphate* , London 1965 ; *The Preaching of Islam* , London 1935 .

37 . Broekelmaun , C., *History of the Islamic Pesoples* , London 1952 .

38 . Caetani , Leon , *An nabi dé El Islam* , Milan 1905 .

39 . *Cambridge History of Islam* , Cambridge 1970 .

40 . Dennett , D .C , *Consersion & Poll-Tax in Early Islam* ,Cambridge 1950 .

41 . Gabrieli , F. *Ashort History of the Arabs* , London 1965 ; *Muhammad and The Conquest of Islen* .

42 . Gibb , H.A.R, *Studies on the Civilization of Islan* , London 1962 .

43 . Hitti , P.K., *The History of the Arabs* , New York 1964 ; *Makers of Arab History* , London 1969 .

44 . Margoliouryth D .S., *Muhammad and the Rise of Islan* , London 1905 .

45 . Muir , W., *The Life of Muhammad* , Edinburgh 1923 .

46 . Watt , W.M., *Muhammad At Mecca* , Oxford 1953 ; *Muhammad At Medina* , Oxford 1956 .

الفهـرس

رقم الإيداع ١٩٠٣ / ٨٨

الترقيم الدولى ٧ - ٢٧ - ١٤٣١ - ٩٧٧

هجر

للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان

المكتب : ٤ ش ترعة الزمر - المهندسين - جيزة

المطبعة : ٢ ، ٦ ش عبد الفتاح الطويل - أرض اللواء

☎ ٣٤٥١٧٥٦ - ص . ب ٦٣ إمبابة

